عمر لطفي النجار

المعرفة الصوفية
بين
التقية والأسرار

بسم الله الرحمن الرحيم

ـ مقدمة:

من المعلوم على المستوى الشعبي أنه إن ذكر أحدهم واحداً من أولياء التصوف، فسوف ترى الحضور يمسحون بأكفهم الوجوه واللحى تبركاً بذكره، وهم يتمتمون بخشوع وتضرع قائلين: قدس الله سره، قدس الله سره! ولست أدري لم اعترتني الريبة والظنون من هذا السلوك وتلك العبارة، حتى لم أر بداً من السؤال عن حقيقة هذا الأمر. وانطلقت أخيراً إلى أحد أصدقائي وأنا عالم بصحبته الوطيدة لأهل الله كما كان ينعتهم، ولكم كانت دهشتي عظيمة عندما أحالني إلى شيخه متعللاً بأنه ما زال مريداً ولا علم له بأمثال هذه الشؤون.

وذهبت إلى ذلك الشيخ الذي ذكره لي وبالطبع بعد أن ارتديت جلابيت الخنوع والخضوع وإلى ما هنالك، فرحب بي الرجل أيما ترحاب حتى خلته مبالغاً غاية المبالغة!

وبعد جلوسي بين يديه، ولما أحسست بالأمان والاطمئنان، تنحنحت وأنا أقول: يا شيخنا، يا شيخنا! أريد أن أطمئن على إيماني وإسلامي على يديك، وكل ما أرجوه أن أجد لديك الدواء الشافي لنكتة سوداء ألمَّت بقلبي علِي أكون قريباً من الصواب أكثر.

فقال وهو يبتسم ابتسامة قصد بها تشجيعي على الكلام: نعم، نعم، تفضل يا بني واسأل ما بدا لك.

فقلت وقد نكست برأسي إجلالاً وإكباراً له، وأنا أرمقه بطرف عيني: شيخنا، ما الذي يعنيه قولنا "قدس الله سره" إن ذُكر أمامنا أحد الأولياء دون الأنبياء أو الصحابة إن تم ذكرهم؟ وهل لي بعدها التعرُّف إلى تلك الأسرار التي ربما بجهلها أكون ناقص الدين والإيمان؟

ولست أدري ما الذي أزعجه! ربما المفاجأة حتى أصبح وجهه مسوداً وهو كظيم إلى حد لم أعد أراه إلا هارشاً بلحيته تارة وتحت إبطه أخرى، وكأنما يبحث عن شيء قد فقده، ولما كرر التثاؤب أكثر من مرة ودونما أن ينبس ببنت شفه، عزمت على الرحيل، وبوضع يداي على ركبتاي استعداداً للنهوض عندها انطلق لسانه بصوته الأجش ليقول: اجلس، اجلس يا بني، فلا تتعجل الأمور، واعلم بأن لكل مقام لقب يخصه، ومقام الأولياء يا بني في أسرارهم مع المحبوب عز وجل كشأن كل الأسرار التي بين العاشقين.

وبلهفة لا واعية قاطعته قائلاً: ولكن، ولكن، ما هذه الأسرار بالله عليك؟

فقال: لا، لا، وها أنت تسميها أسراراً، فكيف إذن تسأل عنها؟ ولا أظن أن أبواك يا بني قالا لك شيئاً عن السر الذي اجتمعا عليه حتى أنجباك إلى هذه الحياة، حتى ولو ألححت بالسؤال عليهما فلا إجابة. فالأسرار يا بني أجُّل من أن تروى وأعظم من أن تحكى بشكل صريح،

فإن شئت أن تكون من أهلها فاسلك طريق الصالحين، وعندها لا بد لك من إدراكها ذوقاً كما أدركها الذين كانت لهم.

فقلت وقد اعتراني الانفعال: هذا صحيح، ولكن ما الذي يدريني إن كانت هذه الأسرار التي لا تحكى على استقامة صحيحة مع الدين أم لا؟ وما الذي سينفعني عندها إن كانت خاطئة وقد هدرت في سبيلها السنين والسنين، لا، فيجب أن أعرف إلى أين المسير منذ البدء وإلا لكنت مجنوناً عابثاً.

فقال غاضباً وقد انتصب أمامي كالرمح: ويحك، أجئتنا متهماً أو سائلاً، فإن أردتنا فالزم الصمت ليكون لك الوصول إلى الله، وليس لك عندي ما هو أكثر من ذلك.

ومضت عشرات السنين بعدها وأنا متأرجح في هذه المسألة فإن سألت الصوفي تارة وتارة فلا أجد عنده إلا الكتمان والجهل، وإن سألت غيره فلا تراني إلا وظننت به السوء لاحتمال أن يكون على عداء وكره للتصوف، حتى كان لي أخيراً دراسة التصوف بأسره بما في ذلك الأسرار التي هي موضوع هذا الكتاب.

واتضح لي من أقوال أرباب التصوف وبالمعنى الوثائقي أنهم مجمعون على كتمان الأسرار التي عرَّفهم الله بها حسب زعمهم لا خجلاً

ولا بخلاً وإنما تقية، ولهذا يقولون عند ذكر أوليائهم: قدس الله أسرارهم على معنى التنزيه لأوليائهم.

وكل ما أرجوه أن يكون كتابي هذا ذا مغزى عند المريد الجاهل بمآله، وأن يكون قادراً على رؤية بعض جوانب الظاهرة الصوفية بوضوح أو كما هي بالضبط. ومن أجل هذين الغرضين كان لزاماً علينا التعرف إلى طبيعة تجربة الشك عند الصوفي، ومن ثم التعرف إلى يقين أسراره وماهيتها.

ـ العقل وتجربة الإيمان:

العقل هو المميز الأهم لبني البشر عن غيرهم من المخلوقات، فالحيوانات قد تدرك ما لا ندرك، وقد ترى ما لا نرى، والبغلة قد فرت جزعاً من عذاب القبر، والكلب يسمع ويشم ما لا نسمع ولا نشم. وبقي الإنسان العاقل بحكم الله هو الأفضل، ويكفي العاقل تشريفاً استحقاقه للتكليف الإلهي، وبالعقل كان امتحان النبوة، وبه كان الإيمان وتصديق ما كان عنها من أخبار تشريعية وعقائدية.

النبوة والكذب لا يلتقيان، وقبل بعثته ﷺ، شهد قومه بأنه الصادق والأمين، ولصدقه "عرضت – خديجة رضي الله عنها – عليه نفسها"[1]، ولما اختلفوا على وضع الحجر الأسود في مكانه، احتكموا إليه، حتى قال شاعرهم:

"ففاجأنا هذا الأمين محمد فقلنا رضينا بالأمين محمدا"[2]

ولما أتاه الأمر الإلهي بإعلان نبوته، نادى قومه: "لو أخبرتكم أن خيلاً تخرج عليكم من سفح هذا الجبل أكنتم مصدقي؟ قالوا: ما جربنا عليك كذبا"[3].

---

[1] ـ ص١٨٩ القسم الأول سيرة ابن هشام
[2] ـ ص١٩٧ نفسه
[3] ـ ص٨٤ مختصر السيرة

وبالعقل امتحنوا كتابه وهو الأمي، حتى أقروا بإعجازه وهم أهل اللغة، رغم تحديهم به، وبالمتشابه استمر إعجازه نحو المعنى العلمي، حتى أصبح المتشابه من أعظم الدعاة إلى الإسلام، وبالعقل أيضاً امتحنوا ثمار ما يدعوهم إليه، ولما وجدوا العمل الصالح نواة الدين كله بما فيه من تشريع وعقيدة، أذعنوا للخير الذي به أمان الفرد والمجتمع والنوع، حتى لم يبق له بعدها من عدو إلا العدو لتلك النواة ولا غيره المكذب بالدين "**أرأيت الذي يكذب بالدين، فذلك الذي يدع اليتيم ولا يحض على طعام المسكين، فويل للمصلين، الذين هم عن صلاتهم ساهون، الذين هم يراؤون ويمنعون الماعون**".

أما تجربة العقل مع الأخبار الماورائية، فتتمثل في قصة الإسراء والمعراج وبالتجربة المدركة كان صدق خبر الإسراء كمقدمة لصدق خبر المعراج، فمن صدَّق بخبر الإسراء وهو إعجاز، فهو على الإلزام بتصديق خبر المعراج أيضاً كإعجاز.

أما الكهان، فقد امتحنوا النبوة بما لديهم، لظنهم أنها من جنس ما هم عليه، ومسيلمة الكذاب كان كاهناً صاحب رؤى من الجن، فطلب من النبي ﷺ المشاركة في النبوة وما يكون عنها من غنائم، ولما خاب ظنه، زعم النبوة وقاتل المسلمين بعدها مع الكاهنة سجاح، وابن صياد الكاهن امتحن النبوة، بمعرفته الخبيء في نفس النبي ﷺ، ولما بان كذبه قال له

ﷺ: اخسأ فلن تعدو قدرك، ولما عرف سويد بن قارب الفرق بين الكهانة والنبوة أسلم وكثيرون غيره أسلموا وحسن إسلامهم، أما شيخ الطائفة الجنيد، فقد عرَّف العارف بأنه الذي يعرف سرك وأنت ساكت، وبهذا المعنى تكون المساواة بين العارف الصوفي والعراف أو الكاهن الوثني!

إن الصوفي لا يكترث بشيء مما قلناه عن تجربة العقل مع النبوة، فلا وجود لديه للعقل إلا وهو منكر، ولا هو بالجدير للمعرفة وإطلاق الأحكام بالصدق والكذب، وهو أعجز من معرفة طبيعة النبوة وصدق أخبارها عما وراء العالم والملأ الأعلى، ولا سبيل لديه إلا الكشف والعيان والذوق، لامتحان النبوة ومواضيع أخبارها، فإن كان التطابق بين الخبر والعيان أو الكشف، أخذ به وإلا فهو المرفوض والمكذوب.

ـ الصوفي وتجربة الشك:

تجربة الإيمان كما رأينا آنفاً تتلخص في جعل الرسول ﷺ موضوع بحث أمام المعايير العقلية، فإن نجح أمام مقولتي الصدق والكذب سلمنا له بصدق أخباره عما لم يدرك، وهنا تكون نهاية هذه التجربة التي تعني الإيمان.

أما الصوفي فبالعكس فتجربته تبدأ من إحساسه بالحيرة أو الشك أمام ما تقوله الأخبار التي موضوعها وراء العالم، ولهذا نراه ساعياً لإدراك تلك الموضوعات، فإن جاءت الأخبار النبوية مطابقة لما كان له من كشف وعيان وإلى ما هنالك، كان له التصديق أو الشهادة بصدق ما قاله الرسول ﷺ وإلا فإن الحيرة ما تزال قائمة إلى حين التوفيق بوسيلة ما وغالباً ما تكون تأويلية وعلى حساب الخبر أو بالافتراق عنه إلى الأسرار إلى العقائد المختلفة. فالحيرة عند الصوفي إذن ترافق سماع الخبر وليس هذا فحسب بل وعند إدراك موضوع الخبر أيضاً وربما لا نهاية لها إلا بالتفرقة بين العيان والإيمان.

لقد روى أهل التصوف حديثاً نسبوه للرسول ﷺ يقولون فيه: "اللهم زدني فيك تحيراً" بل واستنطقوا الإمام علي رضي الله عنه حيرتهم هذه حيث روى ابن عجيبة أنه "قيل لعلي كرم الله وجهه: هل عرفت الله

بمحمد أو عرفت محمداً بالله؟ قال: لو عرفت الله بمحمد ما عبدته ولكان محمد أوثق في من الله ولكن الله عرفني بنفسه فعرفت محمداً ﷺ"[1].

وهكذا أصبح الوصول إلى الله ومن ثم الحيرة أو بفعلها هما أهم أركان تجربة الشك في الفكر الصوفي، وهما أصلان كما ترى قد نسبهما أهل التصوف إلى الرسول ﷺ وإلى الإمام علي رضي الله عنه، فالإمام علي ما عرف الله إلا بالوصول إليه، وبهذا الوصول عرف أن محمداً نبياً وأن أخباره صواب لا غبار عليها، وإلا لكان حائراً بشأنه إن لم يطعن بصدق نبوته وهكذا هم أهل الله أهل التصوف.

الإيمان عند الصوفي مرفوض ولا يصلح إلا للعوام والمحجوبين. وأين المصدق للخبر الذي أتى به جبريل من المعاين أو المدرك لموضوع الخبر، فمن كان له هذا الإدراك فبإدراكه يزن أخبار النبوة، فإن أدرك موضوع الخبر عياناً أخذ به وإلا لا قيمة له لأن الحق أحق بالاتباع من الرجال وما محمد إلا كغيره من الرجال، "وإن الحق – كما يقول ابن عجيبة – لا يعرف بالرجال إنما أعرف الحق تعرف أهله-. فليس الخبر عن الرسول كالعيان، فلا تغتر بالسماع – أو بما تسمعه أذناك من النبي – حتى ترى بعينيك وتتحقق وحينئذ تقدَّم أو تأخر"[2]، فإن قال الرسول مثلاً

---

[1] - ص٦٢ ج٢ إيقاظ الهمم

[2] - ص٢٧٩ ج٢ الفتح الإلهي

بوجود الجنة أو بعذاب القبر كخبر، فلا صدق له على التحقيق حتى يتم إدراكهما عياناً، وإلا فدعه وتأخر عنه لتتجه إلى يقين إدراكك.

وكان سهل بن عبد الله التستري يرى أن "المعرفة غايتها شيئان: الدهش والتحير"[1]، فغاية المعرفة إذن هي الوصول إلى إدراك حقيقة الخبر النبوي وعندها لا بد من الدهشة والحيرة اللتان أصبحتا عنده من علامات الوصول إلى الله عز وجل، وبهذا الوصول يصبح الإيمان ليس تصديقاً لخبر عن موجود لا مدرك وإنما كما يقول سهل: هو معاينة الغيب ومكاشفة اليقين ومشاهدة الرب"[2]. وبذلك يكون كل الذين هم خارج الكشف بعيدين برأيه عن الحقيقة أو اليقين أو حق اليقين.

الشك من علامات الذين وصلوا إلى الله، وبالوصول إليه تكون المعرفة به سبحانه وتعالى، وبهذه المعرفة المباشرة يكون اليقين حيث لا يقين عن طريق الخبر النبوي إلا لمعرفة ما سوى الله عز وجل، والشيخ ذو النون المصري حسب رواية "اللمع" سئل: كيف عرفت الله؟ فأجاب: عرفت الله بالله، وعرفت ما سوى الله برسول الله"[3]. فمن أفرد القصد إليه سبحانه لا بد أنه سيرى الاشتغال بالخلق بالزواج بالطلاق بالأولاد بالإرث بالبيوع بالعلم بالفقه، اشتغال بما سواه تعالى، وبهذا يكون الفصل

[1] - ص١٠ التصوف الإسلامي بين الدين والفلسفة
[2] - ص٢٢٥ من التراث الصوفي
[3] - ص٢١٨ – ٢١٩ نفسه

بين مصدرين، الأول: العقائد وهي من اختصاص الواصلين، والتشريع أو ما سوى الله من اختصاص النبوة! فالصوفي لا معرفة له بالله عن طريق محمد ﷺ، بل ولا سبيل إلى معرفته إلا بالوصول إليه، لأن الرسول أو النبي بحكم أنه مرسل للخلق فلا انشغال له إلا بتدبير شؤونهم، ولا معرفة لديه أعظم من الانشغال بما سوى الله، وليس هذا المعنى بغريب على سهل أيضاً وهو الذي جعل من الحيرة المبدأ والنهاية في منهجه المعرفي حيث "سئل عن أول درجة يلقاها العارف، فقال: التحير ثم الافتقار ثم الاتصال ثم التحير"[1]. فالحيرة الأولى في منهجه تبدأ بالشك في أخبار الرسول، ولكن لا وسيلة للفصل بين الصدق والكذب حتى يكون الاتصال بالله، وبهذا الوصول المؤدي لمعرفة الحقائق ستكون الحيرة تارة أخرى إن وجد الخلاف بين الأخبار النبوية مع اليقين الصوفي المُدرك. وأخيراً لا بد من الرسوخ مع اليقين ولو بالتأويل ولو بالأسرار، ولو بفكرة الظاهر والباطن، وبهذا إن حدث يكون خضوع الخبر للعيان في نهاية المطاف.

أما الكلاباذي فقد حدد الحيرة بأنها حيرة الصوفي "في متاهات التوحيد"[2]، وبالطبع سيمتد الخلاف عندها إن وجد إلى اختلاف بين التوحيد الصوفي وتوحيد الأنبياء. وبالحيرة أيضاً قال أبو عبد الرحمن السلمي حسب رواية الشعراني أو الجنيد حسب رواية ابن تيمية: "انتهى

[1] - ص٣٣٠ التصوف الإسلامي بين الأصالة والاقتباس
[2] - ص ٣٣٠ نفسه

عقل العقلاء إلى الحيرة"[1]، وها هو أيضاً أبو جعفر الحداد يروي لنا قصته مع الحيرة قائلاً: لقد "أشرف عليَّ أبو تراب يوماً وأنا على بركة ماء ولي ستة عشر يوماً لم آكل شيئاً ولم أشرب فيها ماء، فقال: ما جلوسك ها هنا؟ فقلت: أنا بين العلم واليقين وأنا أنظر من يغلب فأكون معه"[2].

فقد تساوى اختلاف يقين الكشف عند الرجل مع المعلوم عن النبوة، وتلك قمة الحيرة بالطبع، فالنبوة تشده إليها أو إلى أخبارها واليقين يشده إليه ولا بد لأحدهما في نهاية المطاف أن ينتصر على الآخر، وكان أبو يزيد يقول: إذا توجهت إلى المسجد فكان في وسطي زنار، أخاف أن يذهب بي إلى البيعة أو لبيت النار، حتى أدخل المسجد فينقطع عني الزنار، فهذا دأبي كل يوم خمس مرات"[3].

ففي إقامة الصلوات أو داخل المسجد فقط يكون أبو يزيد مسلماً أما خارجه فهو مجوسي أو مسيحي وإلى ما هنالك، فقد حار فيمن يكون الصدق عنده، حتى كان له أن قال: "فكشف لي فنظرت إلى الخلق فرأيتهم

---

[1] - ص١٧ ج٢ الطبقات الكبرى، ص٢٤٩ دراسات في التصوف الإسلامي
[2] - ص٢٠٧ تلبيس إبليس
[3] - ص١٤٩ ج٢ الإبريز

موتى فكبَّرت عليهم أربع"[1]. وهكذا كانت الغلبة عنده للكشف عما عند الخلق الذين من جملتهم محمد ﷺ.

الكشف عند الصوفي هو الميزان على صدق النبوة أو المحك الذي تمتحن به، والمحاسبي كما قيل: "لم يسلك طريق التصوف إلا خروجاً من حالة شك كان يعانيها"[2] دوَّنها في كتابه "الوصايا" شأنه في ذلك شأن الغزالي وكثيرين غيرهما. حتى أن الشيخ داود الكبير كان يقول: "لا تقنع قط بسمعت ورويت بل شهدت ورأيت"[3]. فبالمشاهدة والعيان يكون الاطمئنان المؤدي للتأكد من صدق أخبار النبوة، وها هو الحرار مثلاً يقول: ما "من شيء أخبر عنه الكتاب والسنة من الغيب إلا شهدته"[4] بدءاً من الأزل نهاية بالأبد، وربما أن الرجل لم يجد تعارضاً بين الكشف والأخبار النبوية، ولكن ليس كلها بصادق حسب الدباغ القائل: "ما آمنا إلا بما رأينا، أيؤمن أحد بما لا يرى؟ فإن "الحيرة أو الوسواس لا ينقطع إلا بالرؤية"[5].

الصوفي إذن يمتحن النبوة لا عن طريق العقل وصولاً إلى الإيمان ككل العقلاء، وإنما عن طريق تجاوز الإيمان وصولاً للعيان أو وصولاً

[1] - ص٤٧ الرسالة القشيرية
[2] - ص٥٦ التصوف الإسلامي بين الدين والفلسفة
[3] - ص١٩٩ ج١ الطبقات الكبرى
[4] - ص٢٦ سير الأولياء
[5] - ص٧٠ ج١ الإبريز

لمصدر الأخبار النبوية، وكأن الأمر حينئذ مفاضلة بين نبوة ونبوة، والحقيقة أن "الصوفي يحلم بالوصول إلى ما وصل إليه الأنبياء"[١]، إلا أنه "لا يمكن للصوفي أن يصير نبياً كما أن الأنبياء لم يكونوا متصوفة"[٢]، ولا كهنة، بل "ومن الممكن أن نطلق على هؤلاء-. أنهم شاكون في الله وفي الوجود وأنهم سلكوا ذلك السبيل علَّهم يصلون عن طريقه إلى الحقيقة"[٣] ولا هكذا النبوة بالطبع.

ملاحظة: "الصوفي الحق يرتاح إلى الحيرة"[٤] ما في ذلك ريب وإلا لما جعلها من علامات الواصلين، إلا أن الشيخ أبو الحسن الشاذلي يقول: "إذا عارض كشفك الكتاب والسنة فتمسك بالكتاب والسنة ودع الكشف وقل لنفسك إن الله تعالى قد ضمن لي العصمة في الكتاب والسنة ولم يضمنها لي في جانب الكشف ولا الإلهام ولا المشاهدة"[٥].

أما نحن فكل ما نرجوه أن يكون الشاذلي مستقيماً مع ما يعنيه الكتاب والسنة، وبريئاً من التقية التي نجَّته من مصير الحلاج كما هو معروف، وإلا فلا مبرر أو لا معنى للكشف أو للمعرفة أو للتصوف كله إن كان الإيمان برأيه هو نهاية المطاف أو إن كان قيِّماً على الكشف

---

[١] - ص١٠٤ فلسفة التصوف قدرات وطاقات
[٢] - ص١١١ نفسهبل
[٣] - ص٢٣ ــ ٢٤ التصوف الإسلامي بين الدين والفلسفة
[٤] - ص١٩٩ ج٢ التصوف الإسلامي في الأدب والأخلاق
[٥] - ص٥ ج٢ الطبقات الكبرى

والعيان. إلا أن السنة في الفكر الصوفي من جهة أخرى ذات أصول تختلف اختلافاً عظيماً عما يعنيه المحدِّثون بأُصولهم، والاستقامة عندها هي الاستقامة مع أصول التصوف، وبهذه الأصول صار الكشف عند أصحابه مصدراً من مصادر أحاديث النبي ﷺ، وقيِّماً على ما صح من الأحاديث النبوية.

ـ الغزالي وتجربة الشك:

إن للغزالي أهمية خاصة بالنسبة لتاريخ التصوف الفكري، وبه كادت أن تنطلي على البسطاء والسذج أو العوام أحبولة الفصل بين نوعي التصوف الملتزم بالنبوة واللاملتزم إلا بالكشف والعيان. والغزالي لحسن الحظ قد دوَّن لنا كل شكوكه بشكل صريح، فقد حار "الرجل" أمام تضارب الآراء وتعدد الأديان فداخله الشك في أمرها"[١] حتى لم يعد قادراً على تمييز الأفضل منها، وكان شكه بالفعل "دينياً في جوهره"[٢]، "فثار على تقبل التقليد أو السمع على أنها حقائق مقررة والقضية التي شغلت تفكيره وهو في ذروة شكه في بغداد كانت حول ما إذا كان في الإمكان أن يصل إلى الإيمان بالله "أو معرفته إلى درجة اليقين"[٣]، "وكان إذا وجد عقله في مرحلة من مراحل نموه عاجزاً عن قبول ما يؤمن به شك في قدرته الراهنة على الإدراك والمعرفة"[٤]، وفي غمرة هذا الصراع ابتعد عن الله "حتى أصيب بشيء من الانهيار العقلي والبدني"[٥]، إلى حد أصبح معه "على وشك الجنون"[٦].

---

[١] ـ ص٦٢١ من الفلسفة اليونانية إلى الفلسفة الإسلامية
[٢] ـ ص٨ مجلة التراث العربي العدد ٣ ١٩٨٠
[٣] ـ ص٢١ الإنسان عند الغزالي
[٤] ـ ص٢٣ نفسه
[٥] ـ ص٢٢ نفسه
[٦] ـ ص٣٨ نفسه

لقد تمعن الغزالي كثيراً بأقوال أصحاب المذاهب والديانات، بما فيها من براهين تدعم صدقهم جميعاً رغم تناقضاتهم، كما تمعن فيما قالته أخبار النبوة عن اللامدرك الموجود وراء العالم، فلا استطاع تصديق كل المذاهب والأديان ولا استطاع التعرف إلى يقين الأخبار النبوية، وها هو أخيراً يروي لنا قصة شكوكه قائلاً: "وقد كان التعطش إلى درك حقائق الأمور دأبي وديدني من أول أمري وريعان عمري غريزة وفطرة من الله وضعتا في جبلتي، لا باختياري وحيلتي، حتى انحلت عني رابطة التقليد وانكسرت علي العقائد الموروثة على قرب عهد بسن الصبا"[١].

فمذ كان صغيراً كان يسعى لمعرفة حقائق الأمور، وقد اعترته الحيرة منذ الصغر، ومن صغره ترك التقليد أو اتباع النبي ﷺ والعقائد الموروثة ولكن لا ترك جهال وحمقى ولا لفسوق ملك عليه فؤاده وهواه. فقد انطلق الرجل إلى إدراكه الحسي يمتحنه، عله يرى فيه الوسيلة المثلى لتحصيل الحقائق، إلا أنه لم يجد الأمانة بالحس والمحسوس، حتى قال: "فانتهى بي طول التشكك إلى أن لم تسمح نفسي بتسليم الأمان في المحسوسات"[٢]، وكذلك شك كما يقول "بالعقليات التي هي من الأوليات"[٣] أو المبادئ "فأعضل هذا الداء ودام قريباً من شهرين- "وبعدها رجعت

[١] - ص٣ ج٢ المظنون به على غير أهله
[٢] - ص٥ نفسه
[٣] - ص٥ نفسه

الضروريات العقلية مقبولة موثوقة بها على أمن ويقين، ولم يكن ذلك بتنظيم دليل وترتيب كلام بل بنور قذفه الله تعالى في الصدر"[1]، "وانحصرت أصناف الطالبين عندي في أربع فرق: المتكلمون-. والباطنية-. والفلاسفة-. والصوفية-. فقلت في نفسي: الحق لا يعدو عن هذه الأصناف الأربعة"[2] إلا أنه اختار التصوف دون سواه نظراً لمنهجه المؤدي إلى إدراك الحقائق الماورائية أو لأنه علمٌ عن عيان "إن الصوفية – كما يقول – هم السالكون لطريق الله تعالى"[3] حيث أنهم في "يقظتهم يشاهدون الملائكة وأرواح الأنبياء ويسمعون منهم أصواتاً ويقتبسون منهم فوائد"[4].

المعرفة المباشرة يقينية كما يقول أهل التصوف، وذات شان مختلف عما تعنيه المعرفة الخبرية التي يقينها محدود بالتسليم، ومختلفة عما تعنيه المعرفة العقلية التي عمادها القياس والاستدلال ولذلك قال: "فظهر لي أن العلم اليقيني هو الذي ينكشف فيه المعلوم إنكشافاً لا يبقى معه ريب ولا يقارنه إنكار الغلط والوهم، ولا يتسع القلب لتقرير ذلك بل الأمان من

---

[1] - ص٧ نفسه
[2] - ص٨ المنقذ من الضلال
[3] - ص٣٥ نفسه
[4] - ص٢٠ مجلة التراث العربي، العدد الثالث ١٩٨٠

الخطأ ينبغي أن يكون مقارناً لليقين مقارنة لو تحدى بإظهارها بطلانه مثلاً من يقلب الحجر ذهباً والعصا ثعباناً لم يورِّث ذلك شكاً وإنكاراً"[1].

فليس بعد يقين الإدراك المباشر أو العيان حسب رأيه من يقين، وصاحب اليقين هذا لن يتركه ولو سعت المعجزات إلى دحضه، والذوق في القيمة المعرفية أيضاً كالكشف "وأما الذوق فهو كالمشاهدة والأخذ باليد، ولا يوجد إلا في طريق التصوف"[2]، "ومن لم يرزق منه شيئاً- فليس يدرك من حقيقة النبوة إلا الاسم"[3]، واعلم كما يقول، بأن "الإيمان بالنبوة يقر بإثبات طور وراء العقل، تنفتح فيه عين يدرك بها مدركات خاصة"[4]، "فإن كان للنبي خاصية ليس لك منها أنموذج، فلا تفهمها أصلاً، فكيف تصدق بها؟"[5].

فمن أجل زوال الشك بالنبوة إذن يجب السعي لتحصيل بعض خواص النبوة أو بعضاً من ملكاتها، وإلا فكيف لك التصديق أو الإيمان بأخبارها؟! ومن أجل بيان الفرق بين الإيمان أو تصديق الخبر النبوي وبين معاينة موضوع الخبر، يقول: المعاينة، كأنك "تدخل الدار فتنظر إليه بعينيك وتشاهده، وهذه هي المعرفة الحقيقية والمشاهدة اليقينية، وهي

[1] - ص٤ ج٢ المظنون به على غير أهله
[2] - ص٤١ المنقذ من الضلال
[3] - ص٣٦ نفسه
[4] - ص٤٩ نفسه
[5] - ص٤٠ نفسه

تشبه معرفة المقربين والصديقين لأنهم يؤمنون عن مشاهدة. يستحيل معها إمكان الخطأ"[1]، أما الخبر فلا يقين فيه، والأخطاء التي تكتنفه أعظم من أن تحد، "ومما بان لي – كما يقول – بالضرورة من ممارسة طريقتهم – أي المتصوفة – حقيقة النبوة وخاصيتها"[2]. وهكذا امتد شكه نحو ادعاء النبي للنبوة.

ولكن هل انتهت شكوك الرجل بتحصيله لملكات الإدارك الزائد ابتداء من الكشف نهاية بالمشاهدة والذوق وإلى ما هنالك؟ طبعاً لا، وإنما انتقل إلى المرحلة الأخرى للحيرة، بعد تحصيله لإمكانية الإدراك الماورائي أصبح في حيرة مما أدرك مقارنة بما يقوله الخبر النبوي، وفي "المشكاة" مثلاً رأى أن انتهاء شكوكه مشروطاً باعتقاده "بوحدة الوجود"[3]، أو "ليس في الوجود إلا الله"[4] على حد تعبيره، وبذلك يكون انتصاره للكشف على الخبر أو الإيمان بتوحيد لا إله إلا الله، هذا إن استقر على ذلك التوحيد بالفعل، وبالفعل لقد استقر عليه ولكن من حيث هو سر لا يباح إلا لأهله!

ـ ملاحظات حول تجربة الشك عند الغزالي:

[1] ـ ص١٦ ج٣ إحياء علوم الدين
[2] ـ ص٣٧ المنقذ من الضلال
[3] ـ ص٨ مجلة التراث العربي
[4] ـ ص٢٨٦، ٣٢٨، ٢٨٣ ج٤ إحياء علوم الدين

١ – العالم الإسلامي زمان الغزالي كان في حرب ضروس مع الصليبيين ونشره لشكه بالنبوة، وما كان عن النبي من أخبار عن التوحيد والعالم الآخر وإلى ما هنالك على صفحات كتبه وصدور مريديه، له أبلغ الأثر السلبي على ما نسميه اليوم بالجبهة الداخلية، ناهيك عن شهرته بعدم الاكتراث بكل تلك المخاطر التي كانت تحيق بالعالم الإسلامي، وهو المشهور في العالم الإسلامي كله.

٢ – باستخدامه للكشف والعيان للتحقق من صدق أخبار النبوة، وهو الموجود في القرن الخامس الهجري فيه كل الاتهام لتصديق النبي ﷺ بأخبار جبريل عليه السلام، كما فيه الاتهام لإيمان كل الصحابة والتابعين وتابع التابعين، لأنه لا أحد منهم امتحن صدق أخبار النبوة بالمنهج الغنوصي أو الصوفي الذي لا وجود له في البيئة الإسلامية قبل القرن الثالث الهجري.

٣ – الغزالي يخيِّر المسلمين بواحد من أمرين، فإما الرضا بالنبوة المشكوك بأخبارها وإما باعتناق ديانة التصوف أو الغنوص المؤدية إلى الحقيقة واليقين، وفي حال عدم رضاهم بالتصوف كبديل عن الإسلام، فهم عندها في الدرجة الدنيا في علاقتهم مع الله، تماماً كعلاقة العيان بالإيمان، وحتى أن مرضه المزعوم الذي أدى به إلى الكفر ليس إلا الصيغة الأمثل للخيار الذي وضعه أمام المسلمين.

٤ – للنبي كما يقول الغزالي خاصية مميزة، وبهذه الخاصية كان له العلاقة مع جبريل والملأ الأعلى، ومن لم يكن له بعض ملكات النبوة أو خواصها، فلا قدرة له على فهمها أو تصديق من زعمها، ولما سمع أن أهل التصوف أو الغنوص، لهم تحصيل العلاقات مع الملائكة واستفادة المعرفة عنهم عن طريق الرياضات، انحاز نحوهم لتحصيل الملكات النبوية وبهذا كان اعتقاده بأن النبوة كسب لا اصطفاء، وما النبي عندها إلا واحداً من رجالات التصوف، ولكن لا امتحان لخبر الاصطفاء إلا بسؤال الله نفسه، ولكن من سيشهد بصدق خبر الصوفي الحامل للجواب؟ لا أحد طالما خبره ذاتي المصدر البعيد عمن يشهد بالصدق أو الكذب.

٥ – لقد انطلق الغزالي إلى الخلوة المشروطة بالعتمة والجوع والسهر وعدم الأكل من كل ذي روح، ولما كان له الفتح والكشف وإذ لا شيء بحوزته إلا عقائد الغنوص التي كانت منتشرة في معابد حضارات ما قبل الإسلام، ليجعل توحيد لا فاعل ولا موجود إلا الله، كبديل عن توحيد لا إله إلا الله، كما نشر السحر وكتب فيه الكتب وإلى ما هنالك الشيء الكثير، إلى حد يدفع المتأمل في تجربة شكه إلى تكذيب رواياته التي أدت به إلى المرض والإلحاد ليقول فقط: أنه لا شفاء من الشك وحيازة اليقين إلا بالتصوف الذي لا بديل عنه!

٦ – الغنوص والتصوف سيان: التصوف على خلاف عقائدي مع الإسلام، ومن حيث عدم جرأة أهل التصوف على تكذيب النبوة، لجأوا إلى ما يلي من الحيل:

أ – تصنيف ما كان عن النبوة والإيمان في الدرك الأسفل مقارنة بعقائدهم أو بالعيان والكشف.

ب – زعمهم لوجود عقائدهم في باطن النبوة.

ج – دفع ما يعتقدون إلى الأسرار التي بينهم وبين الله، والتي لا تحكى لغيرهم.

ـ الكشف ورتبة الإيمان:

المؤمن بلا كشف كالأعمى، وفي التقليد كفاية للعميان، أما الصوفي الذي أصبح في المرتبة الثالثة أو على الفناء كما يقول الهروي "فيعرف نهايات الخبر في بدايات العيان"[1]. ويعلق ابن القيم الجوزية على ذلك قائلاً: "ومقصوده أن يرى الشاهد – أو صاحب المشاهدة – ما اخبر به الصادق – محمد ﷺ – حتى يصير الغيب بمنزلة المشاهد بالعين"[2]، "فهذا إيمانه يجري مجرى العيان، وإيمان غيره فمحض تقليد العميان"[3]. إلا أن الهروي وبعد أن فصل المراتب المعرفية إلى ثلاث مراتب نراه وقد سعى لإيجاد الفواصل الخطيرة بين أصحابها قائلاً: "وقد مثلت مراتب الثلاثة بمن أخبرك: أن عنده عسلاً وأنت لا تشك في صدقه، ثم أراك إياه فازددت يقيناً، ثم ذقت منه، فالأول علم اليقين والثاني: عين اليقين، والثالث: حق اليقين"[4]. أما علم اليقين الذي هو في الدرك الأسفل فيمكن أن نضع فيه علماء الحديث كالبخاري ومسلم مثلاً، وكذلك علماء الشرع والفقه كابن حنبل والشافعي وغيرهما، أما أصحاب عين اليقين فلهم وفق سماتهم أن يستغنوا عن الخبر النبوي بالمشاهدة، حيث أن مقام "الدرجة الثانية أو

---

[1] ـ ص١٥٠ ج٣ مدارج السالكين
[2] ـ ص١٥٢ ــ ١٥٣ ج٣ نفسه
[3] ـ ص١٥٤ ج٣ نفسه
[4] ـ ص٤٣ ج٢ نفسه

عين اليقين هو المغني- عن الخبر بالعيان"[1]، وعن الدرجة الثالثة يقول: "حق اليقين هو إسفار صبح الكشف، ثم الخلاص من كلفة اليقين، ثم الفناء في حق اليقين"[2]، فالتكاليف والفناء أو الإخلاص لهذا اليقين لا يجتمعان، وليس هذا فحسب بل نراه كذلك مستخدماً لمصطلح الفرار لتأكيد الفصل بين تلك المراتب، وعن منزل الفرار يقول بوجوب "فرار العامة من الجهل إلى العلم"[3]، ووجوب فرار "الخاصة من الخبر إلى الشهود، ومن الرسوم إلى الأصول، ومن الحظوظ إلى التجريد"[4].

فالصوفي إذن غير ملزم بما يقوله علماء الرسوم أهل التقليد الذين هم برأيه في الدرك الأسفل من سلم المراتب المعرفية، ولا حكم لهم عليه، أو لا حكم عليه إلا بما يمليه عليه كشفه وذوقه، بل ولا خضوع له للصحاح من الأحاديث، كما لا احتجاج عليه بالشعائر والرسوم أو التكاليف، بل ولا جدوى لتخويفه من النار وترغيبه بالجنة، وكيف ذلك إن كان يفر من ذلك كله إلى الأصول في التوحيد والتجريد الذي لا معنى فيه للحظوظ بالأصل؟!

- نماذج أخرى لتجربة الشك:

---

[1] - ص٤٠٣ نفسه
[2] - ص٤٠٤ نفسه
[3] - ص٤٦٩ ج١ نفسه
[4] - ص٤٧١ ج١ نفسه

الشيخ عبد القادر الجيلاني هذا الذي شدد كثيراً على الالتزام بالقرآن والسنة والاعتصام بهما، نراه ينصحنا بالشك ليقول: "تحيروًا فيه حتى يأتيكم العلم به، التحيُّر أولاً ثم العلم ثانياً، ثم الوصول إلى المعلومات ثالثاً"[١].

ولكن بماذا أشك ومن أين ستأتيني الحيرة؟ إنها ولا بد من اجتماع التناقض أو الصدق والكذب في الموضوع الواحد موضوع الحيرة، الذي هو بالطبع القرآن وأخبار النبوة، وها هو يقول: "الخلق ثلاثة أضرب: عامي، وخاصي، وخاص الخاص، **فالعامي هو المسلم** المتقي يأخذ الشرع بيده، يلتزم الشريعة ولا يفارقها، يعمل بقول الله عز وجل: "وما أتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا"- وعلامته يأخذ ظاهر الأمر"[٢]، وللانتقال من هذه المرتبة إلى المرتبة الأعلى على السالك أن "يرجع – عن الظاهر – ويستضيئ نور قلبه"[٣]، "فبعد فراغه من العمل بالشرع- يأتيه الصبح، يأتيه نور الإيمان، وأما الأبدال وهم خواص الخواص فيستفتون الشرع، ثم ينظرون أمر الله عز وجل وفعله وتحريكه وإلهامه"[٤].

---

[١] - ص١٤٤ الفتح الرباني
[٢] - ص٤١ نفسه
[٣] - ص٤١ نفسه
[٤] - ص ٤٢ نفسه

فموضوع الشك عنده محصور في الأوامر والنواهي الشرعية، والمسلم أو العامي الذي هو في أدنى الدرجات، له الالتزام بأوامر الشرع ونواهيه كما هي في الظاهر، أما الخواص الذين ما زالوا على السفر فلهم ترك الظاهر للبحث عن المعنى الباطن لهذه الأوامر والنواهي، وهو ما سماه بنور القلب ونور الإيمان، أما خواص الخواص أو الواصلين إلى الله، فإنهم ينظرون في الشرع، ولكن لا إلزام له عليهم، لأن أفعالهم عندها ستكون عن أمر أو فعل أو وحي إلهي مباشر.

الصوفي لا يقنع بأخبار النبوة كما يقول شيخنا هذا ولا بالوسائط كجبريل، فأخباره يجب أن تكون من الله نفسه، والله نفسه يجب أن يشهد لك بصدق ما قاله الرسول أو أن ترى موضوع ما أخبر عنه النبي، وإلا فلا أمان ولا إيمان، وفي ذلك يقول: إن الصوفية "لم يقنعوا بالخبر بل جاهدوا وصابروا وسافروا عنهم وعن الخلق، حتى صار الخبر عندهم عياناً، وصلوا إلى ربهم أدبهم وهذبهم وعلمهم الحكم والعلوم"[1]. أي: فكما أدب الله محمداً ﷺ وأحسن تأديبه كذلك أدب أولياء التصوف وزودهم بالعلم والمعارف، وكما أن محمداً هو الواسطة بين الحق والخلق كذلك هم، "فإن كنت عارفاً – كما يقول – فأنت قائم بين الخلق والخالق تنظر إلى الخلق تارة وإلى الخالق أخرى، تبلغ القوم وتعرفهم أحوال الآخرة وحسابها

[1] - ص١٢٠ نفسه

وجميع ما فيها، لا بل تخبر بما قد شاهدت ورأيت، ليس الخبر كالمعاينة"[1].

وربما لا يقصد أنه رأى المعاينة على خلاف مع الخبر، ولكن لمَ جعل من نفسه كالرسول في قضية التبليغ إن كانت أخبار النبوة صادقة كلها وقد بلغها ﷺ إلى الخلق؟ وبما أن الصوفي يرى نفسه مرسلاً بالتأويل، كما أرسل محمد ﷺ بالتنزيل، لهذا حقَّ له مقام الرسالة، وربما أنه قصد إلى بث الطمأنينة للخبر النبوي لا إيجاداً للخبر أو المعنى الباطني البديل كقوله مثلاً: "اليقين يريكم الأشياء كما هي على صورتها، يصير الخبر معاينة"[2]، فالعارف مثلاً "يرى الجنة والنار وما فيها، يرى الصور والملك الموكل به-. وإذا اجتاز على القبور أحس بما فيها من النعيم والعذاب، نرى القيامة وما فيها من القيام والموافقة، يرى رحمة الله عز وجل وعذابه، يرى الملائكة قياماً"[3].

أما الشيخ عبد الكريم الجيلاني الواثق جداً من معارفه، فيقول هو الآخر: "فإيماننا اليوم بالغيب إيمان تحقيق لا إيمان تقليد، ولا غيب عندنا إلا من حيث نسبة الموطن وإلا فغيبنا هو شهادتنا وشهادتنا هو غيبنا، ولم

[1] - ص١٤٦ نفسه
[2] - ص٢٠٠ نفسه
[3] - ص٩١ نفسه

نذكر هذا التأييد النقلي إلا لأجل المخاطَبْ لا لأجل أنَّا وجدنا هذا الكشف بهذا التأييد"[1].

فالشيخ عبد الكريم يتواضع على ما يبدو من ظاهر قوله، عندما وجد التطابق بين كشفياته مع المنقول عن الرسول والقرآن، وهو على كل حال يثق بمعارفه الكشفية غاية الثقة لدرجة أنه لا يهتم بتلك المطابقة إلا من أجل المُخاطَب لا من أجل أن يثق بمعارفه التي تسمو على الشبهات، إلا أنه بالمقابل لا يتوانى عن تكذيب كشفيات الآخرين من الأولياء، ليقول: لقد "أخطأ كثير من أهل الكشف النوراني لما حكموا أن الأجسام لا حشر وأما نحن فقد علمنا بالاطلاع الإلهي حشر لها الأجساد مع الأرواح"[2].

وإذا قال القرآن مثلاً بدخول موسى والخضر عليهما السلام إلى مدينة ما، فإن شيخنا لا بد قائل: هذا صحيح، ولكن لا لشيء إلا لأني رأيت تلك المدينة "التي وصل إليها الخضر وموسى"[3]. وبهذا كله أصبح الكشف والعيان أو الغنوص عند أهل التصوف، هو المعيار الذي توزن به أخبار النبوة!!

---

[1] - ص٤٥ ج١ بـ١٦ الإنسان الكامل في معرفة الأواخر والأوائل
[2] - ص٥٤ ج٢ بـ٦١ نفسه
[3] - ص٧٤ ج٢ بـ٦٢ نفسه

- ابن عربي وتجربة الشك:

إن من أسس الشك الصوفي وطبيعته كما رأينا قولهم بالمراتب، وابن عربي يقول: "اعلم أن الإيمان على خمسة أقسام: إيمان عن تقليد، وإيمان عن علم، وإيمان عن عيان، وإيمان عن حق، وإيمان عن حقيقة، فالتقليد للعوام والعلم لأصحاب الأدلة والعيان لأهل المشاهدة والحق للعارفين، والحقيقة للواقفين، وأما حقيقة الحقيقة- فهي للمرسلين وقد منعنا الحق من كشفها"[1]. فالصوفي إذن يصل إلى حقيقة الحقيقة ليكون كالرسل أو الأنبياء، إلا أن الأسرار تحيط بهذا المقام، وما أكثر الأسرار التي يجب أن لا تحكى.

المؤمن الصوفي ليس كغيره، "فله علامتان- العلامة الواحدة: أن يصير الغيب له كالشهادة- والعلامة الثانية: أن يسري الأمان منه في العالم كله"[2]. فوحدة العقائد أو توحيد لا معبود إلا الله والكشف إذن من مميزات الصوفي المؤمن برأيه أو من مميزات الولي، وإذا ما سألته عن قعر معرفته، فسوف تراه قائلاً: "المعرفة تحقق"[3] إنها تحقق من صدق الخبر. والمشاهدة التي هي من الوسائل المعرفية عند الصوفي، ينحصر معناها عند ابن عربي في كثير من الأحيان بهذا التحقق، وفي ذلك يقول:

[1] - ص١٠٨ ج٢ م٥١ اليواقيت والجواهر
[2] - ص٢٧ ج٢ بـ٧٣ الفتوحات المكية
[3] - ص٣٥٨ ج٤ بـ٥٥٩ نفسه

"إن الشاهد – أو المشاهد – ما سمي شاهداً إلا لكون ما رآه يشهد بصحة ما اعتقده"[1]، وعندها تكون المساواة بين الإيمان والعيان، حتى يقال في أحدهم أنه مؤمن بما هو فيه عالم من عين واحدة"[2].

فالصوفي مؤمن وبإيمانه يرجح الخبر على الكشف ولكن في الظاهر فقط، وها هو يقول: "لقد عملت على تحصيل إيماني بما جاء من عند الله ولم أكتف بالسماع حتى علمت من أين آمنت وبماذا آمنت لكن مجملاً وما زحزحني علم ما رأيته وعاينته عن إيماني فلم أزل أقول وأعمل ما أقوله وأعمله لقول النبي ﷺ لا لعلمي ولا لشهودي أنا، فواخيت بين الإيمان والعيان"[3].

فقد آخى ابن عربي إذن بين الخبر ومعارفه أو ما كشف له، فقد احتفظ بما علم وبما شاهد في سره دون العلن، وعمل وأعلن بما يقوله الخبر إذعاناً للرسول ﷺ أو للبيئة التي تحيط به وفي هذا يقول: "فواخيت بين الإيمان والعيان وهذا عزيز الوجود في الاتباع فإن مزلة الأقدام للأكابر – أو الأولياء – إنما تكون هنا: إذا وقعت المعاينة لما وقع به الإيمان فتعمل على عين لا على إيمان- والكامل من عمل على الإيمان

---

[1] - ص١٢٢ ج١ م٢٢ اليواقيت والجواهر
[2] - ص١٢٥ م٢٢ نفسه
[3] - ص٤٨ ج٢ الكبريت الأحمر

مع ذوق العيان وما انتقل ولا أثَّر فيه العيان"[1]، أما من ناحية الحكم فنحن كما يقول: "لا نحكم إلا بما شاهدناه"[2]، وبالحقيقة فإن "الكشف يعطي ما يعطي الشرع سواء"[3]، وكلاهما وصلا إلى الحق ولكل شأنه.

فالأكابر أصحاب المذلة على حد تعبيره يسلكون ويعملون وفق عيانهم أو "على عين" لا وفق أخباره ﷺ تشريعاً وعقيدة، أي "لا على إيمان" أما الكامل برأيه فهو الذي اتخذ خبريات الرسول ﷺ في الظاهر وبقي "على ذوق العيان" في الباطن، ولكن دون الإعلان حيث لا يجب البوح بمعارضة الخبر، أو التصريح بالانتقال العملي عنه إلى العيان.

"المعرفة تحقق ولا تحقق إلا بعد الشك، وما الحيرة إلا المقام المحمود عند ابن عربي شانه في ذلك شأن كل رجالات التصوف الذين لهم وعي بأصول الطريق الصوفي، ولقد قال الله سبحانه وتعالى على ذمته أو فقال تعالى-. أنا محيرهم على الحقيقة لا هم"[4]، فمن الحيرة مثلاً قوله تعالى بالثواب والعقاب، وهو الفاعل على الحقيقة لأفعالهم، فهذا تناقض محير، ولكن إن تأملت بحقيقة الأمور لعلمت أنه "ما ثم حيرة في

---

[1] - ص٣٢٣ ج٣ بـ٣٦٥ الفتوحات المكية
[2] - ص٣٤٠ ج٤ بـ٥٥٩ نفسه
[3] - ص١٩ ج٤ بـ٤١٤ نفسه
[4] - ص٣٧ ج٢ بـ٧٣ نفسه

حق العلماء بالله، وبنسبة العالم إلى الله فالعلماء في فرحة أبداً ومن عداهم في ظلم الحيرة تائهون دنيا وآخرة"[١].

فلا حيرة إذن مع انتساب العالَم أو العلم إلى الله وكل من ليس هكذا أو لم يقل بوحدة الوجود فهو تائه ضال، ففي الوصول لوحدة الوجود التي تجمع بين الأضداد يتمثل المعنى الرئيسي للحيرة المحمودة التي هي برأيه أفضل ألف مرة من الهداية أو الهدى بالمعنى المألوف وفي ذلك يقول:

"كل من حار وصل والذي اهتدى انفصل   فإذا قال فتى أنه اهتدى غفل"[٢]

فالحيرة إذن تؤدي إلى الوصول، والحائر الذي وصل أو الذي تجاوز الحيرة لا يرى الفرق بين الله والوجود، والهداية التي معناها الفرق بين الخالق والمخلوق أو الوجود، ليست إلا الغفلة عينها، "فأين كلمات الله التي لا تنفذ وما ثم إلا هو، والواقف بين الشهود والعلم حائر لتردده بينهما والمخلص لأحدهما غير حائر إن انحاز لمن يخلص إليه كان ما كان"[٣]. وبفكرة ربط الانحياز إلى الإخلاص يكون الرجل قد صرح بالهوة الفاصلة بين الخبر النبوي وبين الإدراك الذوقي أو الشهود، فالخبر النبوي يقول بالفرق بين الخالق والمخلوق، والكشف يقول لا موجود إلا الله

[١] - ص٥٠٦ ج٣ بـ٣٨١ نفسه
[٢] - ص٤٢ ج٤ بـ٤٣٠ نفسه
[٣] - ص١٦٧ ج٤ بـ٥٢٤ نفسه

والواقف بين الخبر والعيان حائر لا يدري بأيهما يأخذ، أما من كان له الإخلاص لأحد الطرفين فلا حيرة لديه، فإما إلى وحدة الوجود وإما إلى الفرق بين الخالق والمخلوق أو توحيد لا إله إلا الله.

وحدة الوجود برأيه هي الأصل والميزان الذي يوزن به القرآن فأين كلمات الله التي لا تنفذ أو كيف نفسر هذا القول إن لم نقل ما ثم إلا الله أو لا موجود إلا الله؟ وما كلماته عندها إلا كل ما هو موجود، وأن الله هو مجموع الكل بما فيه الإنسان نفسه وها هو ابن عربي يروي لنا حواره مع ربه، قائلاً: "أقول له: أنت. يقول لي: أنت. أقول له: فأنا. يقول لي: لا بل أنا. فأقول له: فكيف الأمر؟ فيقول: كما رأيت – أو شاهدت – فأقول: فما رأيت إلا الحيرة، فلا تحصيل مني ولا توصيل منك. فيقول: قد أوصلتك. فأقول: فما بيدي شيء. فيقول: هو ذاك الذي أوصلت، فعليه فاعتمد"[1].

فالجمع والحق صنوان ووحدة الوجود كما هو معروف قمة الجمع، فإن خاطب الصوفي ربه قائلاً: أنت الله، قال الله: لا بل أنت. وإن أراد منه العلم قال: لا علم حيث لا فرق موجود لأنه ما ثم سواي فما لدي هو لديك، ولا رسول ولا مرسل إليه وعلى هذا فاعتمد وبما شاهدت فالزم وهو الذي عناه ابن عربي بقوله: "فما بيدي شيء" أو "فلا تحصيل مني ولا توصيل منك" الذي معناه انعدام الفرق بينهما.

[1] - ص١٢٣ ج٤ بـ٤٨٦ نفسه

وإن قلت بالفرق بين العابد والمعبود، لتمام معنى العبادة، يقول الله أو ابن عربي: "فاعبد ربك المنعوت في الشرع حتى يأتيك اليقين فينكشف الغطاء ويحتد البصر فترى ما رأى – النبي – وتسمع ما سمع، فتلحق به في درجته من غير نبوة تشريع بل وراثة محققة"[١].

فاعبد ربك أيها الصوفي هذا الرب المنعوت في الشرع أو القرآن، حتى يأتيك اليقين أو الكشف، وعندها سترى الحقيقة كما رآها الرسول، ولكن على غير ما رآها من حيث هو رسول، وإلا فكيف للعبادة أن توجد وهي فرق أو حيث لا فاعل إلا الله وإنها لحيرة، أو "فرمانا هذا النظر في الحيرة كما رمانا التنزيه. فما ثم إلا حائر، وما ثم حاكم إلا الحيرة، وما ثم إلا الله"[٢].

فالقرآن أو الله إذن هو الذي حيَّر الخلق، فكيف له القول بالعابد والمعبود والمُرسِل والمُرسَل إليه والخالق والمخلوق، إن كان لا وجود حقيقي للفرق أو المسافة بين الخالق والمخلوق أو لهذه الثنائيات أمام يقين الكشف القائل: ما ثم إلا الله. ولكن هل يعني هذا أن الصوفي لا يعبد الله؟ لا، بل يعبده كما يقول ابن عربي، ولكن إن أمره الله بذلك مباشرة، واعلم بأن "العلماء بالله من طريق الخبر – أي علماء الظاهر – فلا يعلمون من

[١] - ص٣١١ ج٣ بـ٣٦٣ نفسه
[٢] - ص١٩٧ ج٤ بـ٥٥٨ نفسه

الله إلا ما ورد به خبر الله عن الله في كتاب أو سنة"[1]. أما من كان عالماً بالله عن طريق الكشف والشهود "فيعبده من هذه صفته عبادة أمر وعبادة ذاتية وليس ذلك إلا لهم وللملائكة"[2].

فالخلق حسب رأي ابن عربي بالنسبة للعبادة صنفان: صنف يعبده عن طريق الخبر النبوي الآمر أو المشرع بكذا والناهي عن كذا وهؤلاء هم المسلمون، وصنف يعبده إن أمره الله أمراً مباشراً بهذه العبادة أو تلك، أو يعبده عبادة ذاتية كالملائكة الذين لا عمل لجوارحهم مع عبادتهم، وهذا هو التمييز بين ما تعنيه العبادة في الإسلام أو عند أهل الظاهر عما تعنيه في التصوف، وهو نفسه التمييز بين الفرق والجمع.

الرسول ﷺ يقول بصعود الأعمال الصالحة إلى الله، ولكن كيف ذلك والقرآن يقول: "والله خلقكم وما تعملون". فهو العامل فإلى أين تصعد الأعمال؟"[3]، وإنها لحيرة، فكيف يكون الصعود ولا فرق ولا مسافة بين الخالق والمخلوق، وكيف تكون نسبة الأعمال إلى الإنسان إن كان لا فاعل لها إلا الله؟!

ومن المحيرات التي في القرآن – عند ابن عربي – أيضاً، قوله تعالى: "ليس كمثله شيء". وقوله ﷺ: "ومن أتاني يسعى أتيت هرولة"،

---

[1] - ص٤٠١ ج٣ بـ٣٦٩ نفسه
[2] - ص٤٠٢ نفسه
[3] - ص٤١٠ ج٤ بـ٥٥٩ نفسه

وأمثال هذه. فإن العقل السليم – كما يقول ابن عربي – يحار في مثل هذه ويتيه، فهذا معنى يضِلّ أي يحير العقول بمثل هذه الخطابات الصادرة من الله على ألسنة الرسل-. والمفهوم من هذه الأمور يستحيل عليه سبحانه من كل وجه-. ثم يجيء الشرع بعد هذا في أمور قد حكم العقل بدليله على إحالتها فثبت الشرع ألفاظاً تدل على وجوب ما أحاله فيقبل ذلك إيماناً ولا يدري ما هو"[1] أي: إن المؤمن الذي لا يدرك أمثال هذه التناقضات في القرآن وعند محمد ﷺ برأي ابن عربي، ليس من أصحاب العقول السليمة، أو أن إيمانه إيمان محجوب أو جاهل، وكل مؤمن دون الكشف فهو محجوب، والعبد إن كان في حال الحجاب إيماناً – أو فهو على الإيمان – وإن كان مع رفع الحجاب فشهود عين"[2] أو على المشاهدة.

المحيرات القرآنية برأي ابن عربي كثيرة "ففي موطن يقول سبحانه ادعوني، وفي موطن يعرفنا بأنه قد قضى القضية وما يبدل القول لديه، وما سبق العلم به فهو كائن ولا ينجي حذر من قدر، وفي ذلك قلت بيتين فيهما رمز حسن وهما:

"إذا قلت يا الله قال: لمَ تدعو *وإن أنا لم أدعو يقول: ألا تدعو*
فقد فاز باللذات من كان أخرساً *وخصص بالراحات من لا له سمع"*[3]

[1] - ص٤٢٠ ج١ بـ٦٩ نفسه
[2] - ص١٢٧ ج٤ بـ٤٩١ نفسه
[3] - ص٤٣٦ ج١ بـ٦٩ نفسه

القرآن إذن حسب ابن عربي مليء بالتناقضات حتى في الآية الواحدة، وها هو يقول مثلاً "ليس كمثله شيء وهو السميع البصير" فكيف ذلك والإنسان يسمع ويبصر، فهو مثله وهذا تناقض.

ويقول سبحانه وتعالى في الحديث القدسي على لسان رسوله: إن تقرب إلي عبدي شبراً تقربت إليه ذراعاً، وإن أتاني سعياً أتيته هرولة. فهذا أيضاً تناقض وهل يجوز وصفه سبحانه بهذه الصفات؟ ومن هذا القلق المفتعل أو التشويش رأى "أن الطرق كلها قد تشوشت فصارت الحيرة مركزاً إليها"[1].

والشرع يطالبنا أيضاً أن نؤمن حتى بما لا نعرف معناه، كقوله "وأبا" وإلى ما هنالك، بل وقد ثبت القرآن ألفاظاً تعني عكس ما أراده منها، بل إن القرآن أيضاً أو الله يطالبنا أن نسأله وندعوه لتحقيق ما نرغب فيه ونتمناه، بينما يقول من جهة أخرى أنه رُفع القلم ولا وجود إلا للقدر القاهر، حتى أن هذا التناقض الذي لمسه ابن عربي في القرآن حسب زعمه دفعه إلى تمني الخرس حتى لا يبوح بما يعلم أو بما في نفسه وإلى تمني الصمم حتى لا يسمع بهذا التناقض المنسوب إلى الله على ألسنة رسله.

---

[1] - ص١٩٧ ج٤ بـ٥٥٨ نفسه

ولما أراد رفع هذه التناقضات عن القرآن، قال عن قوله تعالى "ليس كمثله شيء": أي ليس مثل الكامل الذي هو مثل الله شيء! وبميزان وحدة الوجود قال: ليس لله مجيء وذهاب ولا هرولة وكيف ذلك إن كان ما ثم إلا الله. وما الذي يعنيه الدعاء بتوحيد لا فاعل إلا الله؟ فلا دعاء ولا إجابة والكل جبر، وكيف للشرع بعدها التصريح بالفرق بين الخالق والمخلوق، العابد والمعبود، العاصي والمطيع؟ والحقيقة لا وجود يقيناً لهذه الثنائيات، بل ولا معنى لها إلا عند جاهل بالحقيقة كان من كان، ثم أنشد:

"من قال أن الله خالقه ولم يحر كان برهاناً بأن جهلا" [1]

أي: لا خلق لله موجود، مع الاعتقاد بصدور الوجود فيضاً عنه سبحانه.

وليست الحيرة نابعة من اصطدام الكشف بالخبر، ولا من الخلاف بين القرآن والسنة، ولا في تناقض الآيات بعضها وبعض فحسب، وإنما هنالك مصدراً آخر للحيرة، ألا وهو اختلاف تجلياته سبحانه وتعالى على البشر بدءاً من هذا الرسول وذاك، نهاية بعبدة الأوثان والأصنام والكواكب، فإن كان الله هو الكل الموجود بما فيه من صنم ووثن وكوكب،

[1] - ص٢٧٠ ج١ بـ٥٠ الفتوحات المكية

فكيف يكون التمييز في الصواب بين الذين عبدوا هذه الأشياء، وبين عبادة الله في الإسلام؟ وإنها لحيرة لا مخرج منها إلا الاعتراف بصواب كل العقائد والأديان، وبهذا يقول: "فانظر إلى الحيرة "أنها سارية في كل معتقد، فالكامل من عظمت حيرته ودامت حسرته، ولم ينل مقصوده-. والأكمل من الكامل من اعتقد فيه – أي بالله – كل اعتقاد وعرفه في الإيمان – أي عن طريق الرسل والدلائل – أو عن طريق الفلاسفة وفي الإلحاد – عند الذين لا يقولون بالإله والنبوة"[1]، "والمشاهدة رؤية-. فعليك بطلب الرؤية في كل معتقد كما ينبغي لك أن تكون مؤمناً بكل ما ورد"[2] عند كل أصحاب العقائد "والحيرة أعظم ما تكون لأهل التجلي، لاختلاف الصور عليهم في العين الواحدة-. إن الله قابل لكل معتقد كان ما كان-. ومن هنا نشأت الحيرة في المتحيرين وهي عين الهدى"[3] التي تعني الإيمان بصحة كل العقائد، لنسبها الإلهي بدلالة توحيد لا معبود إلا الله، وبه يكون الخروج من الحيرة إلى اليقين، ولا معنى عندها لتوحيد لا إله إلا الله!

الحيرة إذن فضيلة إسلامية، وابن عربي يقول: هذا صحيح، فقد "قال ﷺ: اللهم زدني فيك تحيراً، فإنه كلما زاده الحق علماً به، زاده ذلك

---

[1] - ص٢١٢ ج٢ بـ١٢٧ نفسه
[2] - ص٣٧٣ ج٤ بـ٥٥٩ نفسه
[3] - ص٤٢ ج٤ بـ٤٣٠ نفسه

العلم حيرة، ولا سيما أهل الكشف، لاختلاف الصور عليهم عند الشهود"[1]، والصوفي إجمالاً ملتزم بما ورد عن النبي ﷺ، ولكن وفق طريقته الخاصة، وأهل التصوف كما يقول "لا يكونون أتباعه إلا حتى يكونوا على قدمه، فيشهدون ما يشهد ويرون ما يرى"[2]. فتلك هي السنة وبذلك هم أتباعه ﷺ وورثته في طريقه لا ورثة ما صح من أفعاله وأقواله!

أما بالنسبة للأحاديث فلا احتجاج على الصوفي بها، ولا بالموجود في الصحاح فابن عربي مثلاً في "عقلة المستوفز" يقول: إنا ما أوردنا شيئاً مما ذكرناه أو نذكره- إلا واستنادنا فيه إلى **خبر نبوي يصححه الكشف"**[3]. فتلك الأحاديث التي رواها صحيحة ولا غبار عليها، ولكن حسب طريقة الكشف وأصوله، حتى ولو عارضت الصحيح من الأحاديث، حتى ولو أنكرها المحدثون، حتى ولو كانت من الموضوعات والمكذوبات، فالكشف هو المعيار عند الصوفي ولا معيار صحيح سواه، "ولولا الكشف – كما يقول – ما علم الولي مقام المشرِّع النبي"[4]، ولولا الكشف أيضاً ما كان للقرآن بيان ولا معنى "وليس البيان إلا ما لا يتطرق إليه الاحتمال، وذلك لا يكون إلا بالكشف الصحيح أو الخبر الصريح-.

---

[1] - ص٢٧١ ج١ بـ٥٠ نفسه
[2] - ص١٨٣ ج٤ بـ٥٣٩ نفسه
[3] - ص٦٠٢ – ٦٠٣ الروحية عند محيي الدين ابن عربي
[4] - ص٣٧٤ ج٤ بـ٥٥٩ الفتوحات المكية

البيان وهو شرح ما جاء به الحق عن كشف لا عن تأويل"[1] وتفسير وإلى ما هنالك.

وعند استعراض ابن عربي للنبوة في موازين المذاهب التي وقعت في الحيرة حسب رأيه، قال: "فلم يكن لهم نور إيمان يكشف لهم عن حقيقة ما قاله الله"[2]، وهذا بالطبع ليس لأحد إلا لأصحاب الكشف، فالصوفي وحده برأي نفسه هو الذي يملك المعنى الحقيقي لآيات القرآن، وهو الذي يملك الصحاح من الأحاديث لا سواه، وبذلك يكون قد هيمن على الكتاب والسنة أو قل على الدين كله إن صح له ذلك.

ابن عربي شأنه شأن غيره من أصحاب الرؤى والملكات الزائدة قد دفعته ملكاته تلك لمقارنة النبوة بكشفياته ومشاهداته، حتى قام بصياغة عقائده أخيراً من خلال ما عناه بمصطلح "الحيرة" حيث حاول جاهداً من جهة أخرى دفع المسلم لإلزام التناقضات التي لا مخرج منها إلا بالإيمان على معنى التسليم أو القول بوحدة الوجود. ولكن ما الذي تعنيه وحدة الوجود بوجوهها الثلاثة من الناحية الإسلامية؟ إنها الإنكار لعقيدة الخلق من العدم، ليصبح العدم رتبة من مراتب الوجود والوجود عندها سيصدر عن الله أو الأول عن طريق الفيض، كفيض الأشعة عن الشمس أو السراج، وكما لا عدم عندها بين السراج والأشعة، كذلك يكون اتصال

---

[1] - ص٣١٣ ج٤ بـ٥٢٨ نفسه حضرة الهدى
[2] - ص٢٤٣ ج٣ بـ٣٥٤ نفسه

الوجود اعتباراً من الله نهاية بالمادة التي تمثل النور الإلهي الذي تجسد، وحينئذ لا موجود إلا الله ولا فرق عندها بين الخالق والمخلوق، بين الطاهر والنجس، بين المرسِل والمرسَل إليه، بين المكلِّف والمكلَّف. أما من ناحية الأفعال فطالما أن الله هو الكل الموجود، فعندها وبالتعميم يكون توحيد لا فاعل إلا الله الذي معناه الجبر المطلق، وحينئذ: لا دعاء، ولا جزاء ولا ثواب، ولا نار ولا جنة، وباجتماع توحيد الأفعال إلى توحيد الوجود يكون توحيد لا معبود إلا الله، وعندها لا فرق في الصواب بين العقائد والأديان، ابتداء من أصحاب الأصنام والأوثان نهاية بالإسلام.

وإن نظرنا أخيراً بثمار هذا المنهج فمن المحال طبعاً استخلاصها من القرآن والسنة، إلا إن أصبح القرآن غير القرآن والسنة غير السنة، وهو ما فعله التأويل وأحاديث الكشف والعيان وإلى ما هنالك.

ملاحظة: من الملاحظ أن ابن عربي لم يكن صادقاً في عرض حيرته وما كان عنها من بدائل عقائدية، فحيرته بالفعل قد أتته من مقارنته للإسلام أو للقرآن بما كان معتقداً في الغنوص، فمن المعلوم لكل من له إلمام بالتاريخ العقائدي لحضارات ما قبل الإسلام، أن التصوف هو نفسه الغنوص الممثل للدين الرسمي في معابد كل تلك الحضارات.

الغنوص كما هو معروف، قد كان موجوداً في الهندوسية والبوذية والمجوسية، وفي المدرسة الرواقية والكلبية عند اليونان انتهاء بأفلوطين

والفيثاغوريين والهرامسة، وحيث كانت الوثنية التي يمثلها الكاهن والساحر والعراف كان الغنوص موجوداً وكان منهجه في تحصيل المعرفة والقدرات الزائدة عن طريق الرياضات هو نفسه عند متصوفة البيئة الإسلامية، ومن اعتقادهم بحلول الله بالوثن والبشر والبقر ومن اعتقادهم بالوصول إليه والاتحاد به، كان اعتقادهم بوحدة الوجود، ومن اعتقادهم بقدرة المنجم والعراف والساحر على معرفة الغيب، كان اعتقادهم بالجبر أو بتوحيد لا فاعل إلا الله، ومن اعتقادهم بإحيائية ظواهر الطبيعة وتعدد تجليات الله في كل موجود أو حلوله بالأوثان المتعددة بما فيها الكواكب، كان اعتقادهم بتوحيد لا معبود إلا الله. وبالنتيجة إن هذا التوحيد الثلاثي الأركان قد كان موجوداً في تصوف ما قبل الإسلام، وقبل أن وجد الصوفي الأول في ديار المسلمين، وبتوحيد الغنوص هذا أنكر أهل التصوف الفرق بين الخالق والمخلوق، والخلق من العدم، وانعدام الفرق بين المكلِف والمكلَف، كما أنكروا وجود الثواب والعقاب أو الجنة والنار، إلا بالكشف أو الحجاب، كما انعدم لديهم الفرق بين العقائد والأديان، ومن أجل هذا كله زعموا الحيرة والتناقض في القرآن، ليجعلوا من توحيدهم البديل عن توحيد لا إله إلا الله، عن خير كلمة قالتها الأنبياء، ولكني على يقين قاطع بأن الإله الذي وصل إليه الصوفي، هذا الإله الذي اتحد معه أو الذي حل فيه أو في الأصنام والأوثان، هو قطعاً غير الإله الذي عبده جميع الأنبياء. وأعوذ بالله من ألاعيب الشيطان ومكره.

ـ النابلسي وتجربة الشك:

أما الشيخ عبد الغني النابلسي، ولما ضربت الحيرة صدره حتى أصبح كبرميل مملوء بالشك، انعزل عن الناس وبقي في خلوته سبع سنوات كاملة لم يحلق خلالها شعره ولا قلَّم أظافره ولا خرج إلى جمعة ولا جماعة، فقد كان "يعيش في حالة من الحيرة أشبه أن تكون أزمة نفسية حادة كالتي أصابت الحارث المحاسبي الذي سجلها في كتاب "الوصايا" أو كالتي أصابت الغزالي الذي سجلها في كتابه "المنقذ من الضلال". وهذه الأزمة مبعثها الحيرة في تحديد الطريق"[١] المؤدي إلى الاطمئنان واليقين.

فالنابلسي لم يكن ليرضى عن نفسه وهو عالم تقليدي من علماء الشريعة أو محدثاً من المحدثين"[٢]، ولذلك نراه يعقد المقارنات الطويلة بين علماء الشرع محدثين وفقهاء ومفسرين، وبين أصحاب العلم اللدني "فالعلم اللدني – كما يقول – هو العلم بالله تعالى ذاتاً وصفات وأسماء وأفعالاً وأحكاماً على وجه الكشف والشهود"[٣]، والعلم على الحقيقة برأيه هو "العلم اللدني الكاشف لصاحبه عن تجلياته تعالى في كل شيء، من غير تشبيه ولا تعطيل"[٤] عن طريق الوحي فإن الله "يهبه إلى العبد بلا

---

[١] ـ ص٨٧ التصوف الإسلامي بين الأصالة والاقتباس
[٢] ـ ص٨٨ نفسه
[٣] ـ ص١٣٣ شروح رسالة الشيخ أرسلان
[٤] ـ ص١٣٤ نفسه

واسطة-. فهو العلم من الحي الذي لا يموت إلى الحي الذي لا يموت-. وصاحب العلم اللدني عالم لا حامل علم لأنه لا علم له من نفسه بل علمه من ربه"[1].

أما علماء الشرع الذين يأخذون علومهم عن الأنبياء، فشأنهم مختلف، فالاعتقادات الشرعية مثلاً تحدثنا كما هو معلوم مثلاً عن العلم بالله ذاتاً وصفاتاً وأفعالاً ولكن لا يعتبر ذلك بالشرع إلا إذا كان على وجه العجز والتسليم كإيمان الأكمه بالألوان. فالعلم على هذا الوجه ليس بعلم إلا حكماً شرعياً **بل هو جهل محض بالله تعالى**"[2]، وعلم أصحاب الشرع "كسبي لا وهبي-. ميتاً عن ميت إلى رسول الله ﷺ-. وصاحب العلم الكسبي عند أهل التحقيق حامل لعلم غيره وهو النبي ﷺ لا عالم"[3].

الولي الصوفي إذن يأخذ علومه أو معارفه من الله مباشرة بلا واسطة من رسول أو سواه، وعلومه يقينية لا لبس فيها، وهو على الأقل لا يقول بالتشبيه أو التعطيل اللذان وردا على لسان أهل الظاهر، وأين عندها الآخذ علمه من الله مباشرة من الآخذ عن الموتى ابتداء من المحدثين والرواة انتهاء بالرسول ﷺ؟ بل ولما تكلم الرسول ﷺ بالذات والصفات وإلى ما هنالك مثلاً، لم يقل ما قاله من حيث هو رسول إلا

[1] - ص١٣٤ نفسه
[2] - ص١٣٤ نفسه
[3] - ص١٣٤ نفسه

للمعنى الشرعي، إلا للحيلة أو الحكمة لا وصفاً للحقيقة كما هي، إن لم يكن جهلاً بها، ولهذا فلا يجب أن تؤخذ أقواله ﷺ على محمل الجد، كما لا يجب اتخاذها إلا إيماناً وتسليماً لا وعي فيه، وهي لذلك حسب الصوفي لا تصلح إلا للمحجوبين والعوام الذين ليس لهم شرب من الذوق أو العلم اللدني. وهكذا انتهت شكوك الرجل، ولكن لا إيماناً بالنبوة وإنما إلى مضاهأتها. أما ابن الفارض فيقول هو الآخر من وحي تناقض كشفه عند الفناء مع خبريات النبوة: "فالموت فيه حياتي وفي حياتي قتلي"[١]. فالمعرفة التي هي حياة الصوفي أو الحياة التي لن يجدها إلا في الفناء أو الموت لو صرح بها إلى الخلق لمات أو قتلوه بها، لأنها بالطبع على خلاف مع القرآن والنبوة.

أما الشعراني غير المخلص لا للشرع ولا للتصوف، هذا الذي ضحى بكرامته على المستوى النفسي والعقلي من أجل ردم الهوة الواسعة بين ما تقوله النبوة وما يقوله الكشف، نراه يتساءل قائلاً: "أيهما أكمل شهادتنا بما جاءنا عن طريق الوحي "النبوي" أو شهادتنا بالمعاينة؟ إن شهادتنا بالوحي أتم من شهادتنا بالعين والمشاهدة"[٢]. ولكنه عند الحديث عن شكوكه لا نراه يبين لنا إن كانت عن المعاينة أو الشرع إن صح التعبير، حيث أنه احتج بقلبه ذات مرة على يهودي، فأصبح يهودياً ليقول

---

[١] - ص٢٩٩ الصوفية في شعر ابن الفارض
[٢] - ص١٨ ج٢ م٣٢ اليواقيت والجواهر

بعدها: "فمكثت على دين اليهود من عصر الجمعة إلى ثاني يوم الظهر"[1]، ولما شك في حقيقة الدعاء وفي قيمته حتى أصبح قاب قوسين أو أدنى من الكفر، راح يقول: "وكنت في ذاك الحال لا أدعو لي ولا لغيري، حتى في صلاة الجنائز، ولا أقدر أنطق بذلك، كما لا أقدر أنطق بكلمة الكفر- ولو أتوني بألف دليل أخرِّج لها وجوهاً- ثم خلصني الله من هذا"[2].

ولكن إن كان الله هو الذي خلَّصه من الكفر الذي عجز عن التصريح به فهذا يعني أن الشيطان حتماً وراء كل الذين نفوا عقيدة الدعاء، ووراء كل الذين قالوا بتوحيد العقائد توحيد لا معبود إلا الله!!

- ملاحظة: لقد رأينا من كل ما مرَّ معنا أن الصوفي قد شك في مصداقية النبوة في البدء، ولما انطلق لامتحانها عن طريق الوصول إلى مصدرها أدرك الخلاف بين معارفه التي لا شك فيها أو في يقينها، وبين ما قاله محمد ﷺ من أخبار، وحرصاً على حياته إن صرح بما يعرف كانت "التقية والأسرار"، وبهما كان له الملاذ الآمن في البيئة الإسلامية.

أسرار الواصلين إلى الله، أسرار عقائدهم لا تباح للمريدين، الذين هم حسبما أعلم بريئون كل البراءة من عقائد الغنوصيين التي تعني الجبر

[1] - ص٧٦ ج٢ الأنوار القدسية
[2] - ص١٤٩ ج٢ نفسه

وانعدام الفرق بين العقائد والأديان وإنكار الخلق من العدم لصالح وحدة الوجود، ولن يكون هذا كله للمريد إلا بعد مراحل قد تطول وتقصر.

تجربة الشك عند الصوفي تطرح البدائل ومحور البدائل هو التوحيد، وبالتوحيد الصوفي يكون نقض كل ما بني عليه الإسلام، وحتى إن سلمنا بأن الصوفي قد أخذ توحيده عن الله لما وصل إليه، سيبقى السؤال: كيف لي أنا، أنا الآخر أن أصدق زعمه هذا؟ خاصة أنه لا كتاب لديهم من الله لنقرأه جميعاً، أما التسليم بالأسرار لأصحابها أو للزاعمين لها، فهذا أمر لا يعقل إلا بفقد العقل، ومن المحال عندها أن أبيع عقلي لمن لا قيمة للعقل عنده. أما إن قارنا توحيده بثماره المرجوة للمجتمع وبقاء النوع البشري، مقارنة بالإسلام على الأقل، عندها لا فرق بين التصوف والوباء، وابحث إن شئت عن علاقة الصوفي بالمجتمع، بالأخلاق المشروطة بالعلاقة مع الآخر، مع العلم الذي به استخراج القوانين التي بها تسخير الظواهر الطبيعية. ولكن لا شيء لديه إلا أوهام المعرفة الشاملة غير الخاضعة للصدق أو الكذب والقدرات الزائفة التي لا نفع منها.

ـ العداء بين الفقهاء والأولياء:

إن البحث عن دوافع ارتباط المعرفة بالتقية والأسرار عند الصوفي يدفعنا إلى النظر في طبيعة العلاقة العدائية بين الصوفي والفقيه، لأنهما من حيث الأصول على منهجين مختلفين، فالفقيه يعتمد المحسوس، يعتمد الوثيقة ليركب متون القياس والاستدلال تحصيلاً للأحكام الشرعية فيما لم يكن له فيه حكم من قبل. أما الصوفي فلا اهتمام له بالوثيقة ولا بكل ما له علاقة بالعقل ولا بالتقليد ولا بالأخذ عن الأموات سواء كانوا أنبياء أو صحابة لأن الله أقرب إليه من حبل الوريد فمنه سيأخذ أحكامه وعقائده وفتاويه.

وعند حديثنا عن تجربة الشك عند الصوفي، رأينا كيف كان نزاعه مع نفسه فيما يجب أن ينتصر له، وغالباً ما انتصر لعيانه على إيمانه، وبعضهم تجرأ بالإفصاح عن اعتقاده المؤدي برأي الفقهاء إلى الكفر أو إلى التحلل من الإسلام ومعارضة عقائده، وكانت قمة الصراع متمثلة بمقتل الحلاج ومحنة غلام الخليل، واحمرت عينا الرقيب المسلم بعدها لمطاردة الخارجين عن العقيدة والإسلام، وهرع الصوفي بدوره إلى التنكر بكافة السبل والحيل، فدفع بمعارفه إلى الكتمان والأسرار، وراح يتحسس عنقه كل لحظة ليداهن الناس بما هم عليه، إبقاء على حياته،

وبذلك أصبحت الأسرار والتقية عقيدة له، وبهما استدرج البسطاء إلى ركابه، وبهما كان له استمرار وجوده في البيئة الإسلامية.

الفقهاء يسخرون من الصوفي الجهول بما هو مأثور عن الرسول ﷺ، يسخرون من قصور باعه في علم الحديث والفقه، ويشمئزون من رياضاته المنافية للعقل والشرع، يتندرون بتسوله وذله وقذاراته، ويتغامزون لرؤية ذكره لله تعالى بالطبل والرقص والمزمار، ويتندرون أكثر من تقديسه للقبور وصحبته للغلمان والنسوان.

حتى أن كتب أعلام أولياء التصوف برأي الفقهاء لا تصلح إلا وقوداً للنار لمن طلب التقرب إلى الله عز وجل، بل إن أحدهم لم يجد ما يحرقه لصنع الخبز الذي استعمله لعلاج الإسهال المزمن إلا كتابا "الإنسان الكامل" لعبد الكريم الجيلاني و "المظنون به على غير أهله" للغزالي"[١].

ولكن ما الذي سيقوله الصوفي بالفقيه من جهة، وما الذي سيقوله لأمثاله ومريديه من جهة أخرى؟ يقول ابن سبعين: اعلم أن "الفقيه ما يعرف من القضايا القياسية والمعاني الروحانية شيئاً إلا ما أعطاه الخبر وأثبته الأثر ونبَّه عليه الشرع في الظاهر لا ما نبَّه عليه في الباطن"[٢]

---

[١] - ص٤٢ – ٤٣ الفكر الصوفي عند عبد الكريم الجيلي

[٢] - ص٣٤٩ بد العارف

فالفقيه إذن رجل التزم الخبر والأثر النبوي وظاهر الشرع، ومن هذا الالتزام كان قياسه الذي لم يلتفت إلى باطن الشريعة، فهو برأيه كمن "يدفع اليقين بالجهل، ويفعل فعلة أبي جهل"[1]، والفقيه كما يقول الغزالي له أن يحكم بصحة الصلاة ولو كان مقيمها بلا وضوء أو بلا حضور لقلبه"[2]، فالفقهاء أذن هم الذين جعلوا من الدين "جملة رسوم وأشكال وأوضاع لا حياة فيها"[3]، ومن هذه النظرة انقسم علم الشريعة في التصوف إلى قسمين: "علم ظاهر الشرع الذي يدرس الأعمال التي تجري على الجوارح-. وقد سمي ذلك علم الفقه-. والثاني علم الأعمال الباطنة أو أعمال القلوب وهو التصوف أو علم الحقائق"[4]، المؤدي إلى اتخاذ الشرع من الشارع، والترمذي مثلاً "كان حنفي المذهب بالأصل قبل أن يعرف الشرع من الشارع"[5] سبحانه وتعالى.

وإذا ما علمت أن الصوفي يأخذ أحكامه الفقهية من الله مباشرة، علمت عندها فساد أقيسة الفقهاء البعيدة كل البعد عن اليقين والصواب، وأين الآخذ من الله من الآخذ بالظن، واعلم كما يقول ابن عربي: إنه ما "منعنا القياس في الدين إلا لأن النبي ﷺ ما أمر به ولا أمر به الحق

[1] - ص١١١ نفسه
[2] - ص١٨ ج١ إحياء علوم الدين
[3] - ص١٨٥ من تراثنا العربي الإسلامي، عالم المعرفة
[4] - ص١٠٦ التصوف الثورة الروحية في الإسلام، ص١٨٤ في تراثنا العربي الإسلامي
[5] - ص١١٥ ج٢ بـ٧٣ الفتوحات المكية

تعالى، فتعين علينا تركه، والتقليد في دين الله لا يجوز عندنا، لا تقليد حي ولا تقليد ميت"[1].

فالفقهاء إذن خارجون عما أمر به الله ونهى عنه، وكل الأحكام المبنية على التقليد والقياس كتلك التي يخرجها الفقهاء لا قيمة لها ولا معنى لها إلا الحكم بالرأي، ولن يؤخذ حكم صحيح أو حكم الله إلا من الله نفسه أو من رسوله ﷺ، وهذا غير حاصل إلا لأهل الله أهل الكشف أهل المخاطبة والمشاهدة والوصول، أما أهل القياس أهل التقليد أهل الظاهر فلا يقين في أحكامهم، وها هو أبو حنيفة مثلاً كما يقول ابن عربي: قد حلل النبيذ، والشافعي قد أباح للأب الزواج من ابنته المخلوقة من مائه في الزنا"[2].

الصوفي كما يقول الشعراني "أعلى منه - أي ومن الفقيه - فهماً في أحكام الله"[3] إلى حد "إذعان الإمام الشافعي رضي الله عنه لشيبان الراعي. وإذعان الإمام أحمد بن حنبل لشيبان أيضاً. وكذلك يكفينا إذعان الإمام أحمد بن حنبل رضي الله عنه لأبي حمزة البغدادي الصوفي.

---

[1] - ص١٦٥ ج٢ بـ٨٨ نفسه
[2] - ص٥٢٢ ج١ بـ٦٩ نفسه
[3] - ص٤٢ ج١ الأنوار القدسية

. كذلك يكفينا إذعان أبي العباس بن سريح للجنيد- وكذلك إذعان الإمام أبي عمران للشبلي"[1].

وبعد أن أنكر ابن عربي أعظم إنجاز إسلامي قام به الشافعي، وأعني به منهج القياس، زعم أن الخضر قد شهد بأن الشافعي "كان من الأربعة الأوتاد، وكان قيامه بعلم الشرع حجبه عن أهل زمانه"[2] من المتصوفة حتى لم يعرفوه، وليس الفقه مانعاً لصاحبه من التعرف إلى الله فحسب، بل ومن أعتى القواطع أمام السالكين إلى الله، فالشيخ الصوفي أبو زكريا الحسني كما يقول ابن عربي "لغلبة الفقه عليه ما تخلص له الأمر"[3] أو الوصول إلى الله وإلى ما هنالك من كشف وعيان. أما الشيخ أبو المواهب الشاذلي الذي اعتاد رؤية الرسول ﷺ، ولمَّا لم يعد يراه طلب من شيخه أن يشفع له، واتضح بعدئذ أن ذنبه الذي حال بينه وبين رؤية الرسول تعاطيه للفقه، حتى قال بعدها: "فتركت الاشتغال بالفقه فرأيته ﷺ"[4].

الفقيه أو رجل الظاهر لا يصلح إلا خادماً بين يدي الصوفي، فالشيخ علي العياشي مثلاً، كان "إذا لم يجد من يوضئه تأتيه الأولياء فيضئونه فيقول: وضأني الإمام الشافعي رضي الله عنه هذا الوقت- ويصلي بذلك

[1] - ص٥ ج١ الطبقات الكبرى
[2] - ص١٦٨ ج٢ بـ٩٠ الفتوحات المكية
[3] - ص٦٣٧ ج٢ بـ٢٨١ نفسه
[4] - ص٧٥ ج٢ الطبقات الكبرى

الوضوء"[1]. فالشافعي الميت أو كبير الفقهاء يأتي ليوضئ الصوفي! فأين الثرى من الثريا، فأين الحقيقة من الوهم، ومن وقائع الشيخ بهاء الدين رضي الله عنه – كما يقول الشعراني – أننا حضرنا يوماً معه وليمة، فنظر للفقهاء في الليل وزعق فيهم وقال لهم: كفرتم بكلام الله، ثم حذفهم بقلة من الماء"[2]، وكيف لا كفر للفقهاء وهم أبناء الشياطين، وهل من فرق بين ابن عبد الوهاب وابن تيمية وبين الشيطان "حتى كأنك ترى بقوة بذر ابن تيمية كل واحد نجدي شيخاً نجدياً وسهماً شيطانياً"[3]. إلا أن الله انتقم من ابن تيمية الذي أفتى بعدم جواز تقديس القبور "وكانت نهايته أن مات محبوساً في قلعة دمشق مقهوراً، وثبتت غارة الله لأوليائه وانتصاره لأحبابه"[4]، فليمت الفقهاء إلى الأبد وما على الأولياء إلا الكيد لهم بكل علم وفن، لأنهم هم "فراعنة الأولياء ودجاجلة عباد الله الصالحين"[5]، ولا بد للمهدي في آخر الزمان – كما يقول ابن عربي – أن يخلصنا منهم، لتكون لنا الدولة التي لا فقه فيها، "فإذا خرج هذا الإمام المهدي، فليس له عدو مبين إلا الفقهاء خاصة- انهم الحنفيون والشافعيون"[6]. ولكن أليس المهدي هذا عند ابن عربي وسواه إلا حلم يقظتهم؟ بلى، بل وحلم المتصوفة

[1] - ص١٨٨ ج٢ نفسه
[2] - ص١٣٧ ج٢ نفسه
[3] - ص٢٠٢ – ٢٠٣ قلادة الجواهر
[4] - ص٢٠٣ نفسه
[5] - ص٢٠٠ ج١ بـ٣٠ الفتوحات المكية
[6] - ص٣٣٦ ج٣ بـ٣٦٦ نفسه

جميعاً!! وإلا لما جسدوا به الفصل بين الفقه أو الكفر والتصوف أو أهل الله، وعلى سبيل المثال "كان الشيخ عبادة أحد أعيان السادة الملكية ينكر على سيدي مدين كما يروي الشعراني، وعند اجتماعهما وبزوال الحجاب عن عيني عبادة انتصب قائماً على رؤوس الأشهاد وقال: "ألا شهدوا أنني قد أسلمت على يد سيدي مدين رضي الله عنه وهذا أول دخولي في دين الإسلام ولم يزل في خدمة سيدي رضي الله عنه إلى أن مات رحمه الله تعالى"[١].

فالمالكيون كفرة ولا شيء لديهم من الإسلام، والحنابلة كفرة ورأس كفرهم ابن تيمية وابن الجوزي وابن الجوزية، حيث لا إسلام عند الصوفي أو برأيه إلا في عدم الإنكار عليه، وقد "جاء مرة قاض من المالكية يريد امتحان الشيخ "الصوفي"، فأعلموا الشيخ أنه جاء ممتحناً، فقال الشيخ رضي الله عنه: إن استطاع يسألني ما عدت أقعد على سجادة الفقراء. "ولما لم يستطع" كشف الفقيه رأسه وأخذ عليه العهد بعدم الإنكار على الفقراء والاعتراض عليهم"[٢]. ولكن أليس في التصوف من فقه وفقهاء؟ بلى! إنها التقية!

---

[١] - ص١٠٢ ج٢ الطبقات الكبرى
[٢] - ص٩٣ ج٢ نفسه

ـ التقية والأسرار:

المعرفة الصوفية الحقة أو حقيقة المعرفة الصوفية، إن تأملتها جيداً، ستراها وقد اندرجت تحت مصطلح الأسرار، وطالما الأسرار لا وجود لها على الحقيقة إلا بتعارض الكشف أو العيان مع الخبر النبوي، ولما كان الفقيه أو متولي الحدود يلوح بسيفه في وجه هذا التعارض، ولما كان الأولياء حريصين على حياتهم بالمقابل، كانت التقية، وتلك هي القصة التي تربط المعرفة الصوفية بالتقية والأسرار.

إن للسر عند القوم معان عدة "أحدها: اللطيفة المودعة في هذا القالب ـ. وذلك هو الروح.

الثاني معنى قائم بالروح ونسبته إلى الروح كنسبة الروح إلى البدن ـ. وهو ألطف من الروح ـ.

والمعنى الثالث: يراد به ما يكون مصوناً مكتوماً بين العبد وبين ربه من الأحوال والمقامات"[1]، وهذا على الحقيقة لا يعني إلا لربط الأسرار بمستوٍ عالٍ من الإدراك، فعن اللطيفة يقول القشيري مثلاً: "إنها محل المشاهدة كما أن الأرواح محل للمحبة، والقلوب محل للمعارف، وقالوا السر ما لك عليه إشراف، وسر السر ما لا اطلاع عليه لغير

---

[1] ـ ص٤٧٢ ـ ٤٧٣ ج٢ مدارج السالكين

الحق"[1]، "ولهذا قال الشيوخ: من لم يكن له سر فهو مصر"[2]، وبنفس المعنى يقول سهل التستري: العلوم ثلاثة "علم ظاهر يبذله لأهل الظاهر، وعلم باطن يمنع إظهاره إلا لأهله، وعلم هو سر بين العالِم وبين الله هو حقيقة إيمانه لا يظهره لأهل الظاهر ولا لأهل الباطن"[3].

فإدراك الأسرار إذن لا يكون إلا عن علاقة خاصة بالله عز وجل، حتى ليمكن اعتبارها من العلامات التي تشير إلى الواصلين من الأولياء، وهذا بالطبع متعذر على أهل الظاهر، إلا إن كانوا باطنيين، "والعلم – كما يقول الدباغ – سر من الأسرار، والظاهر بدون الباطن لا يدرك الأسرار أبداً"[4].

إدراك الأسرار قمة الوصول، فلا حقيقة إلا والأسرار لسانها، وحقيقة الصوفي أو حقيقة إيمانه تدركها في أسراره، "واعلم – كما يقول ابن عربي – أن سر كل شيء عبارة عن حقيقته أو عن ثمرته"[5]، والحلاج "قال وهو على الصليب: هؤلاء عبادك قد اجتمعوا لقتلي تعصباً لدينك وتقرباً إليك، فاغفر لهم، لو كشفت لهم ما كشفت لي لما فعلوا ما

---

[1] - ص٤٥ الرسالة القشيرية
[2] - ص٥٠ نفسه
[3] - ص٢٧ مواقع النجوم
[4] - ص٤٤٩ ج١ الإبريز
[5] - ص١١١ مواقع النجوم

فعلوا"[1]، ولذلك كما يقول القشيري "قيل: الصدق موافقة السر. وقال أبو سعيد القرشي: الصادق الذي يتهيأ له أن يموت ولا يستحي من سره لو كشف"[2].

فالسر حق وهو الصواب، ومن أسرار الصوفي تعرف عقائده، والصادق من أهل التصوف عليه ألا يخجل من أسراره، وعليه أيضاً أن يعيش مع ما يعتقد أنه الصواب، وهكذا يكون إقفال تجربة الشك بالانتصار للكشف على الخبر.

ولكن من أين أتانا المتصوفة بفكرة الأسرار التي تمثل حقيقة الإسلام وهي في نفس الوقت تعارض ظاهر العقيدة والشرع؟ يقولون: ولنا في رسول الله ﷺ وصحابته رضي الله عنهم الأسوة الحسنة، فاعلم بأن للأنبياء أسراراً لم يبيحوها للعوام والجهلة، وإلا لكذبوهم بها، ولهذا آثروا كتمانها إلا عن بعض الخواص، لا بل اعلم أنه قد كان للنبي صلى الله عليه وسلم أسراراً مع ربه لا يعلمها حتى جبريل نفسه عليه السلام، فقد "كان للنبي ﷺ – كما يقول أبو يزيد البسطامي – علم من الله لم يطلع عليه جبريل ولا ميكائيل"[3]، والغزالي بدوره يزودنا بالقالب المجرَّد لهذه المسألة لتملأه أيها القارئ بما شئت من وقائع قائلاً: فإن قيل لمَ منع

[1] - ص١٤٩ مدخل إلى التصوف الإسلامي
[2] - ص٩٧ الرسالة القشيرية
[3] - ص١١٤ النور من كلمات أبي طيفور

الرسول عليه السلام عن إفشاء هذا السر- فقل: لأن الأفهام لا تحتمله"[1]، فأسرار الرسول ﷺ إذن، تناقض ما قاله للناس، ولو قال بها ما احتملها الخلق ولكان صحابته أول المكذبين به، وعليه فمعارضة الأسرار للعقيدة والشريعة سنة نبوية، وهل أهل الله على غير سنته ﷺ؟!

والصحابة أيضاً كان لديهم الكثير من الأسرار التي تعارض المعلوم الذي عند الناس؟ وأبو هريرة رضي الله عنه مثلاً يقول: "حفظت من رسول الله ﷺ وعائين، فأما أحدهما فبثثته، وأما الآخر فلو بثثته قُطع مني هذا البلعوم- وابن عباس قال في قوله عز وجل: "الله الذي خلق سبع سموات ومن الأرض مثلهن يتنزل الأمر بينهن" لو ذكرت تفسيره لرجمتموني، وفي رواية لقلتم إني كافر- وعلي بن أبي طالب يقول:

"يا رب جوهر علم لو أبوح به — لقيل لي أنت ممن يعبد الوثنا
"ولاستحل رجال مسلمون دمي — يرون أقبح ما يأتونه حسنا"[2]

ولكن إن كان الرسول ﷺ وصحابته رضوان الله عليهم أجمعين قد سكتوا عن الإفصاح عن هذه الأسرار التي فيها المعارضة للتشريع والعقائد التي بلغها الرسول للأمة، فلماذا لا نرى الصوفي إلا وهو يلهث من كثرة الكلام بالأسرار، وإذا ما كانت الأسرار من جهة أخرى من

[1] - ص٩٣ المظنون الصغير
[2] - ص٣٢ ج١ الفتوحات المكية

خصوص الرسول وصحابته، فبأي حق زعمها الصوفي لنفسه؟ يقول ابن عربي: "لا، فعلم الأسرار الذي فوق طور العقل- يختص به النبي والولي"[1] على حد سواء إن لم يكن للأولياء النصيب الأعظم، فالأبدال مثلاً أعظم شأناً من موسى عليه السلام، ولكن عندما صرح ابن عربي بذلك قال: "فسلم تسلم، وافهم الأمر واكتم"[2].

وابن سبعين لم ير في وحدة الوجود التي هي عقيدة الأولياء إلا السر الذي احتفظ به الأنبياء دون الناس خاصة الجهال والحمقى، بل إنها برأيه "السر الذي من أجله بعثت الرسل وبه ومنه"[3].

الأسرار مشتركة بين النبي والولي، وهي نفسها عندهما إلا أنه لا إنصاف عند الخلق "فأين الإنصاف – كما يقول ابن عربي – فهلا قلت القدرة واسعة أن تعطي لهذا الولي ما أعطت للنبي من علوم الأسرار!"[4]. فكيف للناس تصديق الأنبياء دون الأولياء، هذا عجيب فقد "تنكشف للأولياء هذه العلوم التي تنكر عليهم ويزندقون بها، ويزندقهم بها ويكفرهم من يؤمن بها إذا جاءته عن الرسل وهي العلوم عينها"[5]. فكيف لهم

[1] - ص٣١ ج١ نفسه
[2] - ص٣٧١ ج٤ بـ٥٥٩ الفتوحات المكية
[3] - ص٣٠ بد العارف
[4] - ص٢٠٠ ج١ بـ٣٠ الفتوحات المكية
[5] - ص٢٠١ ج١ بـ٣٠ الفتوحات المكية.

الشهادة بصدق النبي ويكذبون الولي إن كانت الأسرار والعلوم هي نفسها عند الرجلين، وهل أخذا إلا من نفس المصدر، هذا غريب!

الأسرار تعني معارضة الإسلام أو الخروج عنه، وإلا لما اقترنت بحد الكفر الذي هو القتل، ولولا المعارضة لما نعتت بالأسرار، إنها الأسرار بين الصوفي وربه، وما معارفه عندها إلا:

"رسائل ما بين المحبين أصبحت تجل عن التعريف والرسم والعرف" [١]

وهي أعلى مقاماً وقيمة من كل ما هو معروف، ولكن كما يقول ابن عربي: "هنا باب مغلق لو فتحناه لظهر ما يذهب بالعقول ويزيل الثقة بالمعلوم"[٢] أو بالمعلوم عن طريق الخبر النبوي، ولما لم يأت بعد أوان هذا التصريح أنشد قائلاً:

"إذا صحت عزائمنا في الأسرار نتحد" [٣]

فعلى الأسرار اتحد أهل التصوف وعلى صحتها أجمعوا، وعندها لا ثقة ولا صحة لما هو معلوم عند الناس من خبريات القرآن والسنة، ولا تقليد بعدها للرسول "ومن كُشف عن قلبه الغطاء – كما يقول الغزالي –

[١] - ص٢٨٠ ج٢ إيقاظ الهمم
[٢] - ص٢١٨ ج١ بـ٣٥ الفتوحات المكية
[٣] - ص٤٩٦ ج١ بـ٦٩ نفسه

واستنار بنور الهداية صار في نفسه متبوعاً مقلَّداً فلا ينبغي أن يقلد غيره"[1] نبياً كان أو فقيهاً أو محدثاً، "وإن أردت – كما يقول ابن عجيبة – أن تظفر بما عندهم "أي عند أهل التصوف" من السر المكنون فاسقط عنهم الميزان في أقوالهم وأفعالهم وأحوالهم. وأما ما دمت تزن عليهم بميزان علمك فلا تشم رائحة من سرهم"[2]، "فإن أردت يا أخي أن يهبوا عليك نسيم أسرارهم ونفحات مواهبهم فدع ما تعرف إلى ما تعرف واغتسل من علمك وعملك حتى تبقى فقيراً إلى ما عندهم"[3]، والشاذلي يقول: "يجب أن تفارق ما تعلم لتظهر بالسر المكنون"[4] فنيل الأسرار إذن مشروط بترك ما هو معلوم من أخبار القرآن والنبوة أو بتجاوز ما قالته الرسل على حد تعبير ابن عربي القائل:

"وليس يدرك ما قلنا سوا رجل قد جاوز الملأ العلوي والرسلا"[5]

ولما كانت الأسرار عن عيان فاعلم أن "أكابر الرجال أغناهم العيان عن الإيمان- ولو ضعفوا لحجبوا بالإيمان عن العيان، ومن هنا كفَّر الناس من أفشى أسرار الحضرة"[6]. وعليه فإما أن تبقى محجوباً

[1] - ص٧٨ ج١ إحياء علوم الدين
[2] - ص١٢٣ ج٢ إيقاظ الهمم
[3] - ص١٢٣ نفسه
[4] - نفسه
[5] - ص٥١٩ ج٣ بـ٣٨٣ الفتوحات المكية
[6] - ص١٧٥ ج٢ الكبريت الأحمر

بالخبر النبوي الذي معناه الإيمان لتزن بالشرع أو المعلوم كل الأمور، وإما أن تصبح من أهل الكشف والعيان، هذا العيان المؤدي لمعرفة الأسرار التي لها على الحقيقة إدراك زيف وقصور الخبر النبوي عن الحقيقة، وإن أردت الحيطة والأمان فلتكن أسرارك خليلة خلواتك، وقد "قال الجنيد رضي الله عنه: أهل الأنس يقولون في خلواتهم أشياء هي كفر عند العامة"[١] عامة المسلمين لارتفاع الأدب بحكم الدلال عن علاقتهم بالله عز وجل. واعلم أيضاً بأن الإمام علي رضي الله عنه قد نصح حذيفة اليمان قائلاً: "يا حذيفة لا تحدث الناس بما لا يعرفون فيطغوا ويكفروا- وكذلك قال: لو علم أبو ذر بما في قلب سلمان لقتله"[٢].

فنيل الأسرار كما يقولون مشروط إذن بإسقاط الموازين أو بعدم الإنكار عليهم فيما يفعلون، ومشروط أيضاً بالتخلي عن كل ما هو معلوم من القرآن والسنة، أو بتجاوز الرسل وما قالوه، وعندما يطمئن الأولياء إليك سيهب عليك نسيم عقائدهم أو أسرارهم الصحيحة التي فيها بحكم العوام أو المسلمين كل الكفر.

---

١ - ص١٥٧ شروح رسالة الشيخ أرسلان
٢ - ص٤٩ الصلة بين التصوف والتشيع

ـ موضوعات الأسرار:

يقول الغزالي: إن الأسرار التي يختص بها الصوفي دون سواه ويمتنع عن إفشائها للآخرين إنما هي خمسة أقسام:

"القسم الأول: أن يكون الشيء في نفسه دقيقاً تكل أفهم الأفهام عن دركه"[١] كمعرفة "الروح. وصفات الله الحسنى"[٢].

"القسم الثاني: من الخفيات التي تمتنع الأنبياء والصديقون عن ذكرها ومن ذلك سر القدر. وكيف وقولنا يعني أن الكفر والزنا والمعاصي والشرور كلها بقضاء الله تعالى ومشيئته حق في نفسه"[٣].

"القسم الثالث: أن يكون الشيء بحيث لو ذكر صريحاً لفهم. ولكن يكنى عنه على سبيل الاستعارة والرمز"[٤].

"القسم الرابع: أسرار هذا القسم ناتجة عن الفصل بين الإيمان والعيان أو الظاهر والباطن، وعندها تصبح معرفة العارف ذوقاً والإيمان يصبح يقينا"[٥]. وهذه الأسرار برأيه تعود إلى الفرق "بين العموميات في لغة الشرع وبين المعرفة المباشرة لتفاصيل ما تنطوي عليه هذه العموميات"[٦].

"القسم الخامس: أن يعبر بلسان المقال عن لسان الحال فقاصر الفهم يقصر على الظاهر ويظنه نطقاً. ومن هذا قوله تعالى: "ثم استوى إلى

---

[١] - ص١٠٠ ج١ إحياء علوم الدين
[٢] - ص٨٦ الإنسان الغزالي
[٣] - ص١٠١ نفسه
[٤] - ص١٠٢ نفسه
[٥] - ص٩٠ نفسه
[٦] - ص٨٩ نفسه

السماء وهي دخان فقال لها وللأرض آتيا طوعاً أو كرها قالتا آتينا طائعين"-. والبصير يعلم أن ذلك لسان الحال لا بمعنى أنها تقول أشهد بالقول ولكن بالذات والحال"[١].

فالأسرار للمتعامل بالقرآن والسنة كائنة عن دقة موضوع المعرفة كالروح وعن إدراك متميز غير كائن للآخرين كإدراك سر القدر أو توحيد لا فاعل إلا الله، وعن استخدام الاستعارة والرمز في التفسير والتعبير، وعن الإدراك العياني للخبر في حالتي المخالفة أو الموافقة، والأسرار الأخيرة كائنة عن الفصل بين لسان الحال ولسان المقال.

أما ابن عجيبة فقد توسع بالغزالي أكثر في ربطه الأسرار بمستو الإدراك حيث يقول: اعلم أن "أسرار الحضرة وهي ست: المفاتحة والمواجهة والمجالسة والمحادثة والمشاهدة والمطالعة-. أما المفاتحة فهي مفاتحة علم الغيوب"[٢]، أما المكاشفة-. فإنه يواجهك يكشف لك أسرار الجبروت-. وأما المجالسة-. أنا جليس من ذكرني-. وأما المحادثة فهي المكالمة القلبية-. بإلقاء العلوم والأسرار والحكم في قلبك-. وأما المشاهدة- . فهي شهود العظمة بالعظمة-. وأما المطالعة فهي مطالعة أسرار الملك والملكوت والجبروت وأسرار القدر"[٣].

---

[١] - ص١٠٣ إحياء علوم الدين
[٢] - ص١٩٨ ج٢ إيقاظ الهمم
[٣] - ص١٩٩ نفسه

فالأسرار إذن تأتي للصوفي حسب رأيه من ستة مصادر للإدراك كلها إلهية وهي شاملة لكل ما يتعلق بالعوالم على الإطلاق. ومن موضوعات الأسرار التي لها علاقة بالخبر النبوي من حيث الموافقة والمخالفة هي ما يلي:

١ – **الروح من الأسرار:** معرفة الروح من الأسرار التي يعرفها الغزالي رغم قوله تعالى: "ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي وما أوتيتم من العلم إلا قليلا" إلا أن العلم الذي أتى للغزالي ليس بالشيء القليل، لا، بل "ويجب – كما يقول – ألا يتصور أحد أن النبي ﷺ لم يعرف سر الروح"[١]، لا، فالرسول ﷺ يعرف سر الروح ولكن الله لم يأذن له بإفشائه "وأما معنى ماهية الروح ومعرفة حقيقتها فهو من السر الذي لم يؤذن لرسول الله ﷺ في كشفه لمن ليس أهله، فإن كنت من أهله فاسمع-.!!"[٢] ومن ثم راح الغزالي يتكلم عنه لأهله ولغير أهله. فسر الروح إذن معلوم عند أهل الله وكل ما في الأمر أن إفشائه مشروطاً بالحَمَلَة وهذا لم يكن بالنتيجة متوفراً لرسول الله ﷺ وإلا لعرفه أهل الحديث الذين جمعوا أخباره ﷺ.

٢ – **صفات الله:** لقد قال الغزالي أن للصوفي معرفة بأسماء الله تعالى لا يبيحها لأحد من الخلق خشية على نفسه أو خشية من الإنكار

---

[١] - ص٨٦ الإنسان عند الغزالي

[٢] - ص٥٤ ج٤ روضة الطالبين

عليه، ولما قال ابن عربي أنه لا موجود إلا الله وكل الأشياء هي أسماؤه التي لا نهاية لها اتهم كل الأحاديث النبوية التي حددت أسماء الله الحسنى بالاضطراب والقلق ومن ثم استخدم الكشف ليصل للمعرفة الأصح ليقول بعدها: "وكل اسم إلهي يحصل لنا من طريق الكشف فلا نورده في كتاب وإن كنا ندعو به في نفوسنا لما يؤدي إليه ذلك من الإنكار علينا"[١]. وبالطبع سينكر عليه المسلمون قوله أن أبا سعيد الخراز بل وفرعون وحتى الشيطان من أسمائه تعالى، وقد تكلمنا عن هذا الموضوع بما فيه الكفاية في غير هذا الكتاب.

٣ – **الوحي:** التفسير الصوفي للوحي من الأسرار التي مآلها تفسير النبوة بالملكات والكسب، ويقول ابن المبارك عند حديثه عن نزول الملائكة على الأولياء: "ولو أفشينا ما سمعنا من الشيخ دباغ في هذا الباب لكان آية للطالبين وعمدة الراغبين، ولكنه سر لا يفشى"[٢] إلا أنه يفشى لأهله وفيما بينهم يكون الحديث بالأسرار حيث لا رقيب يخشى منه ويقول ابن المبارك أيضاً: "وتكلمت معه "أي مع الدباغ" في أمر الوحي وكيفية تلقي النبي ﷺ وهل يتلقاه بواسطة جبريل كما هو ظاهر كثير من الآيات أو لا؟ فأتى بكلام لا تطيقه العقول، فلا ينبغي كتبه"[٣]. وإلا فكيف يكون

[١] - ص١٢٥ ج١ الكبريت الأحمر
[٢] - ص٣٩٨ ج١ الإبريز
[٣] - ص٢١٠ ج٢ نفسه

جبريل ولا رسول ولا مرسل إليه، أو إن كان محمداً ﷺ من نوره تعالى، أو اسماً من أسمائه، بتوحيد لا موجود إلا الله؟!

٤ ـ **وحدة العقائد:** ووحدة العقائد أو توحيد لا معبود إلا الله هو الآخر من الأسرار التي أدركها أهل التصوف في علاقتهم بالله وهل لهم البوح صراحة باستواء العقائد كلها أمام الحقيقة؟ وكيف للمسلمين أن يقبلوا المساواة بين الإسلام وعبدة الأوثان والكواكب وأهل الشرك إلا إن كذبوا قوله تعالى: "ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين" وبعد أن استخدم ابن عربي مثلاً الهواء برهاناً على وحدة العقائد قال عن النتيجة التي وصل إليها: "فكن من الأمناء فلا تذع شيئاً من هذه الأسرار الإلهية إلا لأهلها بطريق الإيماء"[١] دون التصريح، وإلا هلكت بأحكام الإسلام التي عمادها الوضوح في الاعتراف أو الإدانة.

ـ ملاحظة: إن توحيد لا معبود إلا الله، هو من أخطر ما يكون على المسلمين سياسياً، لأنه بوابة اللقاء بين صوفية البيئة الإسلامية مع كل الغنوصيين أعداء الإسلام، تحت شعار التسامح الديني وإلى ما هنالك من أغراض لا حد لها، رغم أن الإسلام هو دين التسامح ولكن اللامشروط بتحريف الإسلام.

---

[١] ـ ص٣٩٦ ج٤ بـ٥٥٩ الفتوحات المكية

٥ – **سر القدر أو توحيد لا فاعل إلا الله:** علم القدر كما قال الغزالي من الأسرار التي لا تفشى، وغاية هذا العلم القول بالجبر أو بتوحيد "لا فاعل إلا الله"، فالجبر كما يقول ابن عربي هو "سر القدر"[١]، وهذا السر هو الذي يجب كتمانه لأنه على الأقل لا فرق فيه بين آدم وإبليس ولهذا وجب على كل عاقل ستر السر الإلهي الذي إذا كشف "أو عرفه" من ليس بعالم ولا عاقل إلى عدم احترام الجناب الإلهي"[٢]، لأن الله عندها هو اللعوب والمخادع!! فالعلم بسر القدر إذن يؤدي إلى عدم احترام الجناب الإلهي، لأنه يعني تناقض الله مع نفسه، وإلا فكيف يأمر وينهى ثم يعاقب ويثيب ولا فاعل إلا هو، وبالجبر أيضاً يكون الوصول إلى استواء الطاعة والمعصية أو العاصي والمطيع بل ومن معانيه أيضاً أنه لا معصية لمن عرف سر القدر إن اجترع الموبقات المكتوبة عليه لأنه بكل أفعاله عندها، سواء كانت طاعة أو معصية فهي على الطاعة، ولهذا منع من إفشاء سره – أي سر القدر – المكاشفون"[٣]. أم تريدون فضيحة الله بمعرفتكم لأسراره، أو لأنه أعلمكم بأسراره؟! فإنه تعالى كما يقول ابن عربي قد أعلمنا به "أي بسر القدر" فعلمناه بحمد الله"[٤].

---

[١] - ص٤٠٥ ج١ بـ٦٩ الفتوحات المكية
[٢] - ص٤٠٧ نفسه
[٣] - ص٢٢٢ ج٢ الإبريز
[٤] - ص٦٣ ج٢ بـ٧٣ الفتوحات المكية

٦- سر انعدام الفرق بين الطاهر والنجس: ومن نتائج توحيد لا موجود إلا الله كانت المساواة بين الطاهر والنجس، بين المقدس والملعون، وكيف يكون التمييز بينهما إن كان الله هو الكل الموجود، وهذا بالطبع من أسرار العلم بالله لأن سر العلم بالله هو جمع الأضداد في العين الواحدة"[١] كما يقول ابن عربي، فالأضداد في وحدة الوجود اجتمعت بالعين الواحدة التي هي الله سبحانه وتعالى "وهنا أسرار لا يمكن ذكرها إلا شفاهاً لأهلها"[٢]. ولكنه قد ذكر الكثير منها في كتبه دونما تحفظ اللهم إلا إذا كان المخفي أعظم مما صرح به!!

٧ – **التفسير:** إن للقوم تفسيرات باطنية للنصوص عجيبة غريبة، وعند تفسير الدباغ مثلاً لقصة هاروت وماروت الواردة في القرآن، قال ابن المبارك: "وذكر أسراراً لا تكتب ولا تفشى"[٣]، ولما فسر له أوائل السور أو الحروف التي في أوائل السور قال: "وبقيت أسرار أخر تتعلق بما في السورة لا يحل إفشاؤها"[٤]، إلا أن ابن المبارك أفشى سر الدباغ حيث أنه هو نفسه "المتصرف في العوالم كلها"[٥].

---

[١] - ص٤٧٩ ج٢ بـ١٩٩ نفسه
[٢] - ص٣٨٢ ج١ بـ٦٨ نفسه
[٣] - ص٣٨٢ ج١ الإبريز
[٤] - ص٣٥٩ ج١ نفسه
[٥] - ص٣٧٥ نفسه

التفسيرات الباطنية الملائمة لأصول الغنوص من الأسرار، ولولا خروجها عما تعنيه إسلامياً لما كانت أسراراً تخشى أباحتها، وها هو ابن عربي ووفق أصوله مثلاً نراه يستنكر المعنى القرآني: "فكيف هو أقوم قيلا وما ثمَّ قيل إلا هذا القيل، وهو معلوم عند علماء الرسوم فتحقق ولا تنطق"[١]. فالأسرار إذن ذات تعلق بالتأويلات اليقينية ولذلك حجبت عن العامة من الناس"[٢]، واعلم كما يقول ابن عربي أن التأويل من جملة العلوم المستورة، فمن الأسرار علم ما تشابه من القرآن- فهذا من العلوم المستورة"[٣]، وإمعاناً في الاعتزاز بأسراره الشامخة أنشد قائلاً:

"تفجــرت الأنهــار مــن ذات أحجــار وغاصت بأرضي في خزائن أسراري
فعشــر مــن العلــم اللــدني ظــاهر ومــا كتمـت منـه فتسـعة أعشـار"[٤]

فالمخفي الذي عارض به الإسلام إذن هو الأعظم حقاً من كل هذه الأسرار التي أشار ونوه إليها في كتبه.

٨ – **السحر:** السحر كما هو معلوم ركن أساسي في ديانة الغنوص، أما من حيث وجود الغنوصي في البيئة الإسلامية التي تحرِّم السحر وتعاقب عليه، اضطر لدفع تعاطيه للسحر إلى الأسرار وابن عربي الأجرأهم جميعاً يقول: "فرأيت علوماً مهلكة "يقصد علوم السحر- وهي

[١] - ص٣٩٢ ج٤ بـ٥٥٩ الفتوحات المكية
[٢] - ص٩٠ أضواء على مسلك التوحيد
[٣] - ص٦٣٨ ج٢ بـ٢٨٧ الفتوحات المكية
[٤] - ص٦٧٤ ج٢ بـ٢٩٥ نفسه

أسرار لا يمكن اظهارها، وتسمى علوم السر"[1]، فالسحر هو الآخر يتم تحصيله عن طريق الكشف وارجع إن شئت المزيد إلى كتابنا "السحر والتصوف".

٩ – **توحيد لا موجود إلا الله:** التوحيد عند الصوفي من الأسرار والحلاج يقول: "من أسكرته أنوار التجريد نطق عن حقائق التوحيد لأن السكران هو الذي ينطق بكل مكتوم"[2]، "فالتوحيد – كما يقول ابن عجيبة – سر من أسرار الله، وهم "أي أهل التصوف" أمناء عليه فلا يطلعون عليه إلا من رأوه أهلاً له"[3]، "وكان الجنيد رحمه الله تعالى يقول كثيراً للشبلي رحمه الله تعالى: "لا تفش سر الله تعالى بين المحجوبين، وكان رضي الله تعالى عنه يقول: لا ينبغي للفقير قراءة كتب التوحيد الخالص إلا بين المصدقين لأهل الطريق أو المسلِّمين لهم- وكان رضي الله عنه لا يتكلم قط في علم التوحيد إلا في قعر بيته بعد أن يغلق أبواب داره ويأخذ مفاتيحها تحت وركه ويقول: أتحبون أن يكذب الناس أولياء الله تعالى وخاصته ويرمونهم بالزندقة والكفر"[4].

[1] - ص٣٣٨ الروحية عند محيي الدين ابن عربي
[2] - ص٢٠٥ الحلاج شهيد التصوف الإسلامي
[3] - ص٧٩ ج٢ إيقاظ الهمم
[4] - ص١١ ج١ الطبقات الكبرى

وابن عجيبة يقول: "ومن أفشى شيئاً من أسرارها – أي وحدة الوجود – مع غير أهلها فقد أباح دمه وتعرض لقتل نفسه"[1]. وعندما توصل الغزالي إلى توحيد لا موجود إلا الله ولما أدرك خروجه عن توحيد لا إله إلا الله تحسس عنقه فدفع عندها بعلمه ذاك إلى الكتمان والأسرار، لأن الكتابة إدانة ليقول: نعم، نعم "فليس في الوجود إلا الله- ولكن أمثال هذه الأسرار لا ينبغي أن تستبدل بإيداعها الكتب- فليكف عنها"[2]، أما ابن عربي فقد وجد الحيلة التي تنجيه من المطاردين لعقيدته هذه قائلاً: "وأما عقيدة خلاصة الخاصة في الله تعالى "يقصد عقيدة ليس في الوجود إلا الله أو لا موجود إلا الله" فأمر فوق هذا جعلناه مبدَّداً في هذا الكتاب"[3] كتاب الفتوحات المكية، "والذي يليق بهذا الباب من الكلام – كما يقول – يتعذر إيراده مجموعاً في باب واحد، لما يسبق إلى الأوهام الضعيفة لما فيه من الغموض ولكن جعلناه مبدداً في أبواب هذا الكتاب"[4].

فقد بدَّد الرجل عقيدته في وحدة الوجود على طول كتابه الفتوحات المكية هذا الكتاب الذي استغرق في تأليفه ثلاثين سنة، ومن أراد التحقيق فيما بدده فليقرأ كتابه كله إن كان له صبر وعزيمة على ذلك، وهكذا زعم

[1] - ص٣٩ ج١ إيقاظ الهمم
[2] - ص٣٢ المقصد الأسنى
[3] - ص٤٧ ج١ الفتوحات المكية
[4] - ص١٩٥ ج١ نفسه

نجاته بعقيدته على مستوى التدوين، وبذلك تجاوز خشية الغزالي من الإدانة إن كتب شيئاً عن عقيدته.

ولكن ماذا لو سألنا الصوفي عن علة كتمانه للتوحيد الذي يؤمن به؟ سنراه يقول: احذر، احذر، فإياك والظن أننا نعارض الله ورسوله فتوحيدنا من باطن الشرع، فهو حقيقته، ولكن العوام ومن جملتهم الفقهاء والمفسرين والمحدثين لا يعلمون هذا ولا لهم ذوق بالحقائق، وشفقة منا على هؤلاء الجهلة من أن يكذبوا الله ورسوله، ورحمة بعقولهم الضعيفة التي لا تحتمل النظر في حقائق الأمور أخفينا هذا التوحيد عن أبصارهم وآذانهم "أتحبون أن ترمى الصحابة والتابعون الذين أخذنا عنهم هذا العلم بالزندقة بهتاناً وظلما"[١]!

ولكن ماذا لو سألناه أيضاً عن نتيجة توحيده مقارنة بالإسلام؟ عندها لا شيء إلا الصمت، إنها الأسرار ولا شيء آخر.

١٠ – **الكتب:** وزيادة على كل الاحتياطات التي قام بها المتصوفة في علاقة أفكارهم بالكتابة، فقد منعوا كتبهم من النشر أو الانتشار خوفاً من محقق أو صبور إن وصل إلى خفاياهم وأسرارهم، ومن أجل الحذر والتحذير من نشر كتبهم، قال الشعراني: "نحن قوم يُحرَّم النظر في كتبنا على من لم يكن من أهل طريقنا، وكذلك لا يجوز لأحد أن ينقل كلامنا إلا

[١] - ص١٩ ج١ م٣ اليواقيت والجواهر

لمن يؤمن به، فمن نقله إلى من لا يؤمن به دخل هو والمنقول إلى جهنم الإنكار. فمن باح بالسر استحق القتل. لأنه كمن نقل المصحف إلى أرض العدو"[١].

١١ – **سر إبطال النبوة والربوبية:** التوحيد الصوفي يقول لا موجود إلا الله، فلا رب ولا مربوب والكل واحد، والغزالي يقول حسب المشكاة: "لقد قال بعض العارفين: إفشاء سر الربوبية كفر"[٢]، والمكي في "القوت" يروي عن سهل قوله: "للربوبية سر لو كشف لبطلت النبوة، وللنبوة سر لو ظهر لبطل العلم، وللعلماء سر لو أظهره الله لبطلت الأحكام"[٣] الفقهية. ولكن ما الذي تعنيه حقيقة هذه الأقوال عند القوم؟ إنها ما يلي:

١ – "للربوبية سر لو ظهر لبطلت النبوة". لأن الربوبية كما هو معلوم لا قيام لها إلا على الفرق بين الرب والمربوب، فالفرق هو السر الذي به قيام الربوبية، فإن زال أو ظهر زيفه بتوحيد الجمع توحيد لا موجود إلا الله، بطلت الربوبية وبالنتيجة النبوة أو الرسالة، لأن الرسالة هي الأخرى لا قيام لها إلا على الفرق بين المرسِل والمرسَل إليه أو الخالق والمخلوق.

[١] - ص١٧ ج١ بـ٣ نفسه
[٢] - ص٤٠ مشكاة الأنوار
[٣] - ص٢٤٤ – ٢٤٥ من التراث الصوفي، ص٣٣٩ تلبيس إبليس

الربوبية حسب ابن عربي مشروطة بالمربوب، "فالربوبية صفة تزول عن الحق إذا زال أثرها وهم المربوبون"[1]، ولقد قال الله تعالى مثلاً: "كنت يده وسمعه" "فبسر العالم تعلم أن الحق سمعك"[2]. وبهذا الجمع أو الاتحاد بالله يكون زوال الفرق بين الرب والمربوب، "ولهذا قال سهل إن للربوبية سراً. وهو أنت يخاطب كل عين لو ظهر لبطلت الربوبية"[3].

فالربوبية أو الألوهية المشروطة هو السر أو أن هذا الشرط هو السر الذي به إبطال الربوبية والنبوة، وابن عربي يقول أيضاً: "فلو ظهر هذا السر الرابط "أو الشرطي" لما ذكرنا لبطلت الألوهية. وهو قول الإمام "الغزالي": للألوهية سر لو ظهر لبطلت الألوهية"[4]. ولما كان الله في التوحيد الصوفي هو الكل، فعندها لا رسول ولا مرسِل ولا رب ولا مربوب والكل واحد، أنا وأنت وكل عين، وفي هذا المعنى يقول ابن عجيبة: "سر الربوبية عندك. فإذا أردت أن تعرفه فارجع إلى ذاتك واعتبر تجد الوجود كله واحداً وأنت ذلك الواحد. أنا هو المحبوب وأنا الحبيب"[5]. أنا الرب وأنا المربوب ولا فرق بيننا وبالشرع كان يدي وكنت

---

[1] - ص٨٧ ج٢ فصوص الحكم
[2] - ص٤٧٩ ج٢ بـ١٩٩ الفتوحات المكية
[3] - ص٩١ ج١ فصوص الحكم
[4] - ص٤٢ – ٤٣ ج١ الفتوحات المكية
[5] - ص٤٢ ج١ إيقاظ الهمم

سمعه فلا موجود إلا الله على الإطلاق واعلم أن الإيمان كله وبكل معانيه قد بني كما يقول ابن عربي على إخفاء هذا السر بالذات"[١].

ولكن احذر، احذر، فعلم الربوبية هذا كما يقول ابن عجيبة "يجب كتمه عن غير أهله، ومن أباحه أبيح دمه، وهو الذي قتل بسببه الحلاج"[٢]، "فأسرار الربوبية التي أخفاها الله عن خلقه ولم يطلع عليها إلا خواص أوليائه، إذا نطقوا بها مع غير أهلها ردوا عليهم وربما أباحوا دماؤهم"[٣]. فاحذر من البوح بأمثال هذه الحقائق التي فيها كل الكفر الذي لا يباح إلا للكفرة العارفين أسرار الله!!

٢ – "إن للنبوة سراً لو ظهر لبطل العلم": المعنى المستتر إنما في معرفة أن "النبي إنما يطاع على أساس أنه الوحيد الذي يتمتع بعلاقة خاصة بالله سبحانه وتعالى"[٤]. ولكن إن علمت أن للصوفي أيضاً نفس العلاقة مع الله إن لم تكن أعظم فعندها سترى أن القول بالاصطفاء أو الاختصاص هو السر المزعوم، وبزوال الاصطفاء يزول أخذ العلم بالملأ الأعلى عن الخبر النبوي، "ولو أن علاقة كل إنسان بربه كشفت حقيقة، لم تكن هناك حاجة إلى نبوة أو رسالة"[٥]، ولن "تكون هناك حاجة إلى

---

[١] - ص٢١٦ من التراث الصوفي
[٢] - ص٤٤ ج٢ إيقاظ الهمم
[٣] - ص٢٦١ نفسه
[٤] - ص٢٤٥ من التراث الصوفي
[٥] - ص٣٤٢ نفسه

إرسال نبي أو رسول يذكِّرهم، وكيف يذكرهم بحقيقة هم يدركونها ويرونها ويحيونها"[1]. فلا مبرر إذن للقول "بالاختصاص والعلم الذي لا يطلع عليه سوى الأنبياء"[2]، بل أنه "ما يخبر عنه الأنبياء غيباً، يشاهد الآن عياناً"[3] عند أهل الله إلى حد أنهم قد لمسوا الكثير من الأخطاء التي قالت بها النبوة "وهو كما يقول ابن عربي ما يقتضيه النظر العقلي بأدلته في الإله إذا تجلى الحق فيه بطلت النبوة فيما أخبرت به عن الله-. والنبوة لا تتبعض فإذا ردَّ شيء منها ردَّت كلها-. ولذلك يتأول المؤمن-. وإذا عجز-. فيسلمه لله ولكن عن تأويل مجهول"[4].

فلا اختصاص ولا اصطفاء إذن، والنبوة تخطئ ولا عصمة للنبي أما المؤمن فيأول ما أخطأت به النبوة ويقبله على التأويل والتسليم، ولا هكذا أهل الله العارفون للسر المبطل لأخذ العلم عن الرسل، العارفون بأن الاصطفاء هو السر الذي موَّه به الأنبياء على الخلق حتى يؤخذ العلم عنهم دون غيرهم.

كل الخلق لهم الوصول إلى الله عز وجل، ولهم الوصول إلى العلم بالملأ الأعلى بشكل مباشر، والطرق المؤدية إليه سبحانه بعدد أنفاس الخلائق، وابن عربي يقول عن هذا السر الذي به فضيحة الأنبياء: "فسر

[1] - ص٢٤٥ نفسه
[2] - ص٣٤٢ نفسه
[3] - ص١٧٦ نفسه
[4] - ص٢٤٢ ج٢ بـ٥٥٨ الفتوحات المكية

الحق هذا لو ظهر لبطل الاختصاص. والنبوة اختصاص فتبطل النبوة ببطلان الاختصاص"[1] أو الاصطفاء، وهكذا يكون قصدهم من الأخذ بالعيان دون الخبر النبوي، وقصة الشك لامتحان أخبار النبوة ليست إلا لإبطال النبوة لا أكثر ولا أقل.

٣ – "إن للعلماء سراً لو أظهروه لبطلت الأحكام": وبالطبع يقصد الأحكام الشرعية.

وبسر القدر أو بتوحيد "لا فاعل إلا الله" يكون للصوفي إبطال الأحكام الشرعية التي عمادها البرهنة على حرية الإنسان وإرادته في اختيار أعماله، ولكن هيهات، هيهات، فالكل جبر ولا فرق بين العاصي والمطيع، لا، ولا فرق بين آدم وإبليس، ومن كشف له هذا السر علم "أن جميع الأحكام كما يقول ابن عربي مقدرة من الله بالأصل وعلم أيضاً أنه لا تخيير للإنسان قط "فإذا بطل التخيير" بطل الحكم، فبطل معنى النبوة، فهذا سرها"[2] الذي عناه سهل التستري.

فالنبوة إذن قائمة على ثلاث حيل أو أسرار، أولها: اعتماد الأنبياء للفرق بين الخالق والمخلوق أساساً لهم حتى زعموا أنهم مرسلون من الله إلى الخلق، وبتوحيد لا موجود إلا الله يكون زوال هذه الحيلة.

---

[1] - ص٤٧٩ ج٢ بـ١٩٩ نفسه

[2] - ص٤٧٩ ج٢ بـ١٩٩ الفتوحات المكية

ثانيها: زعمهم للاصطفاء حتى لا يؤخذ العلم عن سواهم. وبتعميم الوصول إلى الله وبشمولية التجليات الإلهية لكل البشر، وبتوحيد "لا معبود إلا الله" كبديل يكون زوال زعم الاصطفاء.

ثالثها: قول الأنبياء بالحساب على الأعمال، وأن الإنسان حر في اختياره وأنه مكلف ومحاسب، ليس إلا حيلة حتى تكون لهم الحرية في استخدام السيف واستعباد العباد. وبتوحيد لا فاعل إلا الله يكون سقوط هذه الحيلة.

وهكذا إذن فثلاثة أسرار التوحيد الصوفي فضحت ثلاث حيل من حيل الأنبياء، وعندها لا نبوة قطعاً، حتى أن التوحيد الصوفي أو الغنوصي بالأصل لم يكن على هذه الصياغات إلا لهذا الغرض، ومَن مِن أهل التصوف لم يقل بهذا التوحيد بأركانه الثلاثة بل كلهم أجمعوا على صحة توحيد الوجود وتوحيد الأفعال وتوحيد العقائد اعتباراً من سهل التستري نهاية بابن عربي مروراً بحجة الإسلام الغزالي، ولكل منهم أسلوبه في مواراة اعتقاده.

وكيف للصوف بعدها ألا يخشى إفشاء أسرار توحيده أو ثمار هذا التوحيد، من بطش المسلمين إن علموا به، ولا نجاة بعدها إلا بالكتمان الشديد للأسرار الخطيرة، "كالأسرار الأنبيائية" ولا سبيل إلى إظهارها البتة – كما يقول ابن عربي – لأنها إن ظهرت لم تحتملها العقول،

فالظاهري المحقِّق يكفِّر بها، والذي فيه رخصة في دينه يضل بها إن سمعها وهي حق في نفسها والعقل يجوزها"[1].

فهذه الأسرار إذن صحيحة بالنسبة لله أو الحق، صحيحة بالنسبة للعقل حتى وإن عارضت ما يقوله القرآن والرسول، وليس في ذلك كفر ولا زندقة، وإن حكم الظاهري عليها بالكفر فهي الشهادة لكمال الصوفي، إلى حد أن "أبو القاسم الجنيد سيد هذه الطائفة يقول: لا يبلغ أحد درج الحقيقة حتى يشهد فيه ألف صدِّيق – أو مؤمن – بأنه زنديق"[2].

أسرار أهل التصوف من الله وما قالوا الذي قالوه في حق الأنبياء إلا "لأنهم يعلمون من الله ما لا يعلمه غيرهم"[3] من أهل الظاهر أهل الحماقات، واعلم كما يقول ابن عربي أيضاً أنه "وقع لنا وللعارفين أمور ومحن بواسطة إظهارنا المعارف والأسرار، وشهدوا فينا بالزندقة وآذونا أشد الأذى وصرنا كرسول كذبه قومه"[4]. وصبر جميل والله المستعان.

---

[1] - ص١٥٦ مواقع النجوم
[2] - ص٢٥ ج١ ف٤ اليواقيت والجواهر
[3] - ص١٩٩ ج١ بـ٣٠ الفتوحات المكية
[4] - ص٢٥ ج١ ف٤ اليواقيت والجواهر

ـ كتمان الأسرار لحماية الدين والمجتمع:

وإذا ما قلت للصوفي: فطالما أنكم تثقون بصحة أو صدق أسراركم هذه، فلم كتمانها عن الخلق؟ ولمَ لا تزيحون غشاوة الالتباس عن العيون حتى تكون لهم الحقيقة الناصعة كما هي لكم؟ فسوف تراه يجيبك: هذا محال وإلا قتلنا الحمقى والمحجوبون فليس في وسعنا إلا التدرج بالمريد ليكون له إدراك هذه الأسرار في نهاية المطاف، وإلا فلا مريد لنا أيضاً إن علم سلفاً أننا على خلاف مع القرآن والرسول، واعلم أيضاً بأننا ما كتمنا هذه الأسرار بالأصل إلا حماية أو إبقاء للنبوة والدين، وحماية للجهلة من اجتراعهم للموبقات والفساد إن عرفوها ولهذا استوصى الغزالي أقرانه بالمحجوبين خيراً ليقول: "فسيروا بسير أضعفكم ولا

تكشفوا حجاب الشمس لأبصار الخفافيش، فيكون ذلك سبباً في هلاكهم"[1]. خاصة إن انعدم التمييز لديهم بين الحلال والحرام، فلا بد من التدرج مع العوام والجهلة حتى يكون لهم فهم الأسرار، والرسول صلى الله عليه وسلم كما يقول ابن عربي في كتابه "عنقاء مغرب" ما أظهر لهم أو "للجمهور" إلا على قدر عقولهم، خوفاً من نفورهم عنه صلى الله عليه وسلم"[2]، وإلا فلن نجد مريداً قط ليطلب الانتماء إلى التصوف.

الجهلة قد يسيئون فهم الحقيقة إن عرفوها لأنه ليس "أحداً يستفيد من هذا الكشف "كشف الأسرار" إلا إذا كان قد سلك هذا المسلك العرفاني وعاش فيه وشعر به واختبره"[3]، "وأمثال هذه المعارف – كما يقول الغزالي – لا يجوز أن يشترك الناس فيها، ولا يجوز أن يظهرها من انكشف له شيء من ذلك لمن لم ينكشف له، بل لو اشترك الناس فيها لخربت الدنيا، فالحكمة تقتضي شمول الغفلة لعمارة الدنيا"[4].

إذن فمن أجل الحكمة أو المصلحة التي تتيح الحفاظ على المجتمع، لا خوفاً على حياته، آثر الصوفي كتمان أسراره وحقائقه عن الخلق، فسنة الله هي التي اقتضت وجوب الغفلة لعمارة الدنيا، ولن تجد لسنة الله تبديلا.

---

[1] - ص٩٧ ج٤ إحياء علوم الدين
[2] - ص٦٤ الروحية عند محيي الدين ابن عربي
[3] - ص٩٦ أضواء على مسلك التوحيد
[4] - ص٣٣٧ ج٤ إحياء علوم الدين

الأسرار لن تلقى جزافاً، ولا بد من صنع حملتها رويداً رويداً ففتح الباب على مصراعيه "لا يجوز إلا لأصحاب البيت الحقيقيين ولا يصح ذلك إلا لمن سعى إليه وجدَّ في طلبه والاحتساب به والتدرج بمقاماته ومراتبه"[١]. فالجواهر لا يجب أن تعرض "في أزقة الباعة وفي أسواق العطارين"[٢]، والشيخ الصوفي علي ولدة "يقول: **من سياسة الداعي إلى الله أن يؤلف الناس عليه أولاً بالإحسان وطيب الكلام، وتخفيف المأمورات، فإذا رسخوا فله التحكم فيهم كيف شاء. حتى تكون الهجرة من أرض الفتنة"**[٣] وديار الغفلة على حد تعبير الغزالي إلى أرض الحقيقة والأسرار.

فلا بد للشيخ من التدرج بالمريد بكافة السبل، حتى إذا اطمأن إلى هجرته عما كان يعلم ويعتقد، أباح له التعرف إلى الأسرار شيئاً فشيئاً، فالشيخ أحمد بن سلمان مثلاً "كان رضي الله عنه يمتحن المريد قبل أن يأخذ عليه العهد سنة وأكثر"[٤]، والشيخ أبو الحسن الشاذلي يقول "مريد واحد يصلح أن يكون محلاً لوضع أسرارك خير من ألف مريد لا يكونون محلاً لوضع أسرارك"[٥]، "وقد كان الرجل "أو المريد" يخدمهم سنين فلا

---

[١] - ص٦٦ أضواء على مسلك التوحيد
[٢] - ص٦٨ نفسه
[٣] - ص٦٤ ج٢ الطبقات الكبرى
[٤] - ص٨٢ ج٢ نفسه
[٥] - ص٨ ج٢ نفسه

يظهرون له منها قليلاً ولا كثيراً، حتى إذا رأوه أعطى نفسه وفلسه وبذل روحه بالكلية أشاروا إليه إشارة خفيفة"[1]، "والمريد في حال سيره مأمور بالكتمان لعلمه وعمله وحال وارداته"[2].

ـ عواقب إفشاء الأسرار:

لقد حرص أهل التصوف على إبقاء أسرارهم بعيدة عن أنظار وأسماع الغرباء عنهم، وكان الكتمان وسيلتهم وجميع المشايخ استوصوا به خيراً ونعتوا صاحبه بكل الألقاب الشريفة، والغزالي يقول: "فقلوب الأبرار قبور الأسرار، فلا ينبغي أن يفشي العالِم كل ما يعلم إلى كل أحد"[3]. فكتمان الأسرار أيضاً من علامات الأحرار عند ابن عربي القائل: "صدور الأحرار قبور الأسرار"[4]، "ومن أعلمه الله "سراً" فليكتم لئلا يجرأ فيأثم"[5]، "ولو كتم العبد سراً ما قيل له لقد جئت شيئاً إمراً ولا نكرا.

[1] ـ ص٧٩ ج٢ إيقاظ الهمم
[2] ـ ص٨٣ نفسه
[3] ـ ص٥٧ ج١ إحياء علوم الدين
[4] ـ ص٧٤ ج٤ بـ٤٦٠ الفتوحات المكية
[5] ـ ص٣٧٩ ج٤ بـ٥٥٩ نفسه

إنما حرمت الخمرة في هذه الدار لأنها تبدي الأسرار"[١]، واعلم بأن الأسرار كفرج الأم إن لم يستر فهو الفضيحة"[٢]، "وأما من يطالع كلام الصالحين ويلقيه لكل جليس على حد سواء فليس بسالك"[٣]، وأبو يزيد البسطامي يقول للمريد: "لا تذكر كلامنا هذا مع كل أحد. دعه، تكلمه مع الجمال في الصحراء"[٤]. فالأسرار أمانات كما يقول ابن عجيبة "هي أمانات وسر من أسرار الملك، وسر الملك لا يحل إفشاؤه فمن أفشاه كان خائناً واستحق الطرد والعقوبة"[٥]

"من سارروه فأبدى كلما ستروا ولم يراع اتصالاً كان غشاشا
من لم يصن سر مولاه وسيده لم يأمنوه على الأسرار ما عاشا
وعاقبوه على ما كان من زلل وأبدلوه مكان الأنس إيحاشا"[٦]

"فكتم الأسرار من شأن الأخيار، وهتك الأسرار من شأن الأشرار"[٧]. فالأسرار نفيسة ومن أفشاها فقد استخف بها، والشيخ علي الخواص البرلسي اشترط الفتح للمريد بكتم الأسرار، "فمن تحقق بكتم

---

[١] - ص١٤٩ ج٢ الكبريت الأحمر
[٢] - ص٤٣١ ج٢ بـ١٩٨ الفتوحات المكية
[٣] - ص١٦٧ ج٢ الأنوار القدسية
[٤] - ص٧٨ النور من كلمات أبي طيفور
[٥] - ص١١١ ج١ إيقاظ الهمم
[٦] - ص١٠ – ١١ أضواء على مسلك التوحيد
[٧] - ص١١٢ ج١ إيقاظ الهمم

الأسرار – كما يقول – سمع كلام الموتى ورأى ما هم فيه"[١]، والشاذلي الذي اعتاد رؤية الرسول ﷺ وحيث انقطعت عنه رؤيته عاتبه الرسول قائلاً له: "إنك لست بأهل لرؤيتنا لأنك تطلع الناس على أسرارنا"[٢]. وعندما انتبه إلى نفسه عاد لرؤيته كما كانت عادته، إلا أن الصوفي الجريء أو الشجاع لا يخشى من عواقب أسراره إن كشفت، وما حوار الجنيد والنوري عنا ببعيد، فقد "قال الجنيد للشبلي: نحن حبَّرنا هذا العلم تحبيراً ثم خبأناه في السراديب فجئت أنت فأظهرته على رؤوس الملأ"[٣]، "فقال النوري: يا أبا القاسم! بششتهم "أنت" فأجلسوك على المنابر ونصحتهم "أنا" فرموني في المزابل"[٤]، ومرة دخل الحلاج مسجد بغددا وأبو القاسم الجنيد يتكلم على المنبر، فهتف به الحلاج على مسمع من الدنيا: "يا أبا القاسم إن الله لا يرضى من العالم بالعلم حتى يجده في العلم، فإن كنت في العلم فالزم مكانك وإلا فانزل، فنزل الجنيد ولم يتكلم على الناس شهراً"[٥].

فالحلاج يرفض التقية إذن ويرى ضرورة انطباق لسان العارف أو العالم بما يعلم ويعرف. وشهد الجنيد على نفسه أنه من المرائين للناس

[١] - ص١٥٥ ج٢ الطبقات الكبرى
[٢] - ص٧٥ نفسه
[٣] - ص١٤٥ التعرف لمذهب أهل التصوف
[٤] - ص١٤٦ نفسه
[٥] - ص٦٢ الحلاج شهيد التصوف الإسلامي

تقية وجبناً فنزل عن المنبر إلى حين، إلا أن الحلاج ذهب بجرأته إلى الصليب، وكانت رسالة الشبلي إليه وهو على صليبه تقول: "إن الله قد أتمنك على سر من أسراره فأذعته فأضاقك طعم الحديد"[١]، ومن ثم قال لأصحابه: "كنت أنا والحسين بن منصور الحلاج شيئاً واحداً إلا أنه أظهر وكتمت"[٢]، فقتل بجرأته ونجوت بتقيتي وقال الشاعر منهم:

"فمن فهم الإشارة فليصنها — وإلا سوف يقتل بالسنان
كحلاج المحبة إذ تبدَّت — له شمس الحقيقة بالتداني"[٣]

وقال الشيخ أبو مدين:

"وفي السر أسرار دقائق لطيفة — تراق دمانا جهرة لو بها بحنا"[٤]

وزين العابدين يقول هو الآخر:

"يا رب جوهر علم لو أبوح به — لقيل لي أنت ممن يعبد الوثنا
ولاستحل رجال صالحون دمي — يرون أقبح ما يأتونه حسنا"[٥]

---

[١] - ص١٥٥ نفسه
[٢] - ص٩٢ نفسه
[٣] - ص٤٤ ج١ الفتوحات الإلهية
[٤] - ص٢٣٠ ج٢ الفتح الإلهي
[٥] - ص١١٣ التصوف في الإسلام

أما الرفاعي فقد انبطح بالتقية حتى لامس خده التراب، وهو يقول: "كن ذَنَباً ولا تكن رأساً فإن الضربة أول ما تقع في الرأس"[١]، وعن الشيخ أبو عثمان القرشي "حُكي أن أصحابه قالوا له يوماً لم لا تحدثنا بشيء من الحقائق؟ فقال لهم: كم أصحابي اليوم؟ قالوا: ستمائة رجل. فقال: استخلصوا منهم مائة ثم استخلصوا من المائة عشرين، ثم استخلصوا من العشرين أربعة. فلو تكلمت بكلمة من الحقائق على رؤوس الأشهاد، لكان أول من يفتي بقتلي هؤلاء الأربعة"[٢].

ولننظر أخيراً فيمن أخذ الأسرار وقد انطلق بها في حياته فالشيخ أحمد بن عبد الله مثلاً أعطى سره لأحد مريديه "فلم يبق إلا مدة قليلة وشهدوا عليه وقتلوه"[٣] بتهمة الكفر، وآخر "صلبوه"[٤]، وأحدهم "تنصَر"[٥]، وبعضهم "جعل يذكر سره للناس فلما سمعوا ذلك منه جعلوا عليه البينة وقتلوه من ساعته"[٦]، وأقل ما يمكن قوله: إن إباحة الأسرار تؤدي إلى سوء الظن بحاملها، وهذا ما نبَّه عليه الشيخ داود الكبير بقوله: "من أبدى من أسرار الله تعالى ما لا يليق إبداؤه وأفشى من العلم المكنون ما لا يناسب إفشاؤه عوقب بسوء الظنون فيه أو بما هو فوق ذلك من

---

[١] - ص٣٠٠ أشرف الوسائل
[٢] - ص١٥١ ج١ الطبقات الكبرى
[٣] - ص٥٩ ج١ الإبريز
[٤] - ص٦٠ نفسه
[٥] - ص٦١ نفسه
[٦] - ص٦٤ نفسه

العقوبات"[1] التي نهايتها القتل. ولكن الاعتراف والإقرار لا علاقة له بسوء الظن أما إن كان يقصد سوء الظن بالأسرار فالعقائد التي خبأتها الأسرار واضحة ولا لبس فيها.

- دروب التقية:

الأسرار حق من حق، ولكنها تتسم بمعارضة ما يقوله القرآن والرسول ﷺ، ولما كان أصحابها عاجزون عن حماية أنفسهم أمام جبروت الإنكار لم يبق أمامهم إلا التقية أو النفاق أو الكذب المشروع إنقاذاً لحياتهم ونشراً لعقائدهم وها هو ابن عربي مثلاً يئن ألماً ليقول: "لا سبيل إلى خصامهم ولكن نقول كما قال العبد الصالح هذا فراق بيني وبينك"[2]. وبالتقية كان الفراق بالأسرار بين مداهنة الظاهر أو أهل الظاهر

---

[1] - ص١٩٤ ج١ الطبقات الكبرى

[2] - ص٣٢ ج١ الفتوحات المكية

والحقيقة، ومن طلب قدر نفسه فعليه ستر أسراره ولو بسوء الظن ولو بالجنون، وأحد رجالات الشعراني أنشد قائلاً:

"استتار الرجال في كل عصر تحت سوء الظنون قدر جليل" [1]

واعلم كما قيل أنه "ما عُبد الله بأفضل من التقية!".

إن للتقية عند القوم كما رأينا دروباً كثيرة، منها ما يلي:

١ – أخذ المواثيق: التفسير التأويلي كما هو معروف من جملة الأسرار التي يخفيها الصوفي عن الخلق، وإذا أراد إفشائها لأحد فلن يكون هذا قبل أخذ المواثيق والعهود التي تضمن كتمانها. وذات مرة مثلاً كان الشيخ ابن المبارك يلقي دروسه فمرت به كما يقول "مسألة كبيرة فيها سر من أسرار الله تعالى. فقال لي الشريف "أو أحد المستمعين": ما معنى هذا الكلام؟ فقلت: لا أدري. "وخفت من إفشاء السر" فلم يزل الشريف يرغب، فقلت له: والله لا أفسرها لك إلا إذا أعطيتني العهود والمواثيق أنك لا تتكلم بما تسمع مع قريب ولا مع بعيد، فأعطاني ذلك وفسرت له المعنى المراد، وأجبته عن جميع الإشكالات"[2].

[1] - ص٩ ج١ الطبقات الكبرى
[2] - ص٧٩ ج١ الإبريز

٢ – الكلام حسب المستمع: وإذا ما اضطر الصوفي إلى الحديث مع الخلق، فعليه ألا ينسى كتمان أسراره فليس له أن يتحدث بها إلا إن لمس قبولها من المستمعين دونما اعتراض، والشيخ علي ولده يقول: "فلا تظهر لقومك إلا ما تعرف منهم قبوله منك"[١]، وعلى الشيخ كما قال أحدهم "أن يكون يقظاً فطناً لما يبرز منه، فلا يعطي كل جليس إلا ما يقبله استعداده في كل زمان"[٢]، فالولي أو "المقرب – على حد تعبير ابن سبعين – لا يجد مع من يتكلم بمذهبه من حيث هو وإنما يتكلم بقدر يفهمه من حيث ما يقبله المخاطَب"[٣]، والكامل كما يقول ابن عربي يجب أن "ينصبغ بكل صورة في العالم ويتستر بما يقدر عليه. فينبغي لصاحب هذا المقام أن لا يظهر لشخصين في صورة واحدة أبداً"[٤]، وها هو نفسه مثلاً في كتابه الفتوحات المكية، بعد أن شهد بتوحيد لا إله إلا الله محمد رسول الله، وبعد أن قال بالجنة والنار وإلى ما هنالك مما في القرآن وعن النبوة، قال: "فهذه عقيدة العوام من أهل الإسلام. ثم أتلوها إن شاء الله بعقيدة الناشئة الشادية"[٥] عقيدة وحدة الوجود. والساذج سيظن أن الذي قاله وشهد به هو ما يعتقد به بالفعل، وبعدها فلن تراه إلا قارئاً لكتبه على هذه الاستقامة من البلاهة وحسن الظن وما علم المسكين أن خطورة المنهج الصوفي متمثلة

[١] - ص٢٩ ج٢ الطبقات الكبرى
[٢] - ص٥٨ ج٢ الأنوار القدسية
[٣] - ص١٤٧ بد العارف
[٤] - ص١٧٧ ج٣ بـ٣٤٤ الفتوحات المكية
[٥] - ص٣٨ ج١ نفسه

بأسلوبهم هذا في التقية والتمويه، إلى حد أن جعلوا من التقية والاستهزاء بالعقول من العقائد المقدسة التي أمرهم الله بها، ولقد قيل للرفاعي ذات مرة: "ماذا قال ربك"؟ فقال رضي الله عنه قال ربي ﷻ:

"دارهم ما دمت في دارهم وارضهم ما دمت في أرضهم" [1]

فهلا علم المريد إلى أين هو سالك، وهل له بعدها النجاة من شباك هذا المنهج؟ لا، وسوف يبقى الشيخ قدوة للمريد ولكن إلى حين يكون المريد مستعداً لتلقي أسرار وعقائد شيخه.

٣ – الأسرار لا تحكى إلا مشافهة: لقد كان للجنيد صديقاً وكان بينهما مراسلات ويذكر أن الجنيد لم "ينقطع عن مكاتبة رفيقه هذا إلا خوفاً من أن يقع كتابه في يد أناس لا يفقهون ما يقول"[2]. ولما كانت الكتابة تعني الإدانة استوصى المتصوفة بعدم الحديث في الأسرار إلا مشافهة، وعندما جاءت إلى ابن سبعين رسالة من أحد المتسائلين عن الأسرار امتنع عن الجواب كتابة ليقول له: "فاقبل العذر حتى يقع الاجتماع بك ونتكلم مشافهة معك"[3]، وبمعرض حديث ابن عربي عن المساواة بين الطاهر والنجس التي تمتد إلى المساواة بين القرآن والأوثان

[1] - ص١٩٨ قلادة الجواهر
[2] - ص٧٣ ج١ التصوف الإسلامي في الأدب والأخلاق
[3] - ص٣١ بد العارف

قال: "وهنا أسرار لا يمكن ذكرها إلا شفاهاً لأهلها فإن الكتاب يقع في يد أهله وغير أهله"[1]، وفي ذلك ضرر عظيم يجب تجنبه.

ليس في المشافهة من إدانة وبها كل الأمان "ويحكى أن أبا بكر بن الجلاء كتب مرة إلى الحسن بن سالم يسأله عدة أسئلة حول الحقائق الصوفية الدقيقة السرية فلما وصل الكتاب لابن سالم قرأه ثم نحاه جانباً وطلب حضور كاتب الرسالة، فلما قيل: إن كاتبها مقيم بمكة. قال على الفور: أنا لا أجيب على هذا كتابة، اخبروا هذا الرجل أن يأتي إلى هنا إذا أراد"[2].

٤ – الفقه للتقية: عدم الحديث بالأسرار أمام الملأ، إرضاء العوام بمشاركتهم ظاهراً بما يؤمنون به، عدم المكاتبة بعقائد الخواص وأسرارهم، عدم المخاطبة إلا مشافهة وعلى الإنفراد وليس هذا كله هو النهاية في دروب التقية بل حتى الفقه اتخذوه ترساً لمواراه عقائدهم أو أسرارهم. فمن المعلوم كما يقول الشعراني أن المسلمين قد "شهدوا على الجنيد رضي الله عنه بالكفر مراراً حتى تستر بالفقه واختفى مع علمه ومعرفته"[3] عن الناس، والشيخ أبو علي الدقاق حسب رواية القشيري عن نفس الحدث، "يقول: لما سعى غلام الخليل بالصوفية إلى الخليفة أمر

---

[1] - ص٣٨٢ ج١ بـ٦٨ الفتوحات المكية
[2] - ص٦٢ من التراث الصوفي
[3] - ص١٦١ ج١ الطبقات الكبرى

بضرب أعناقهم، فأما الجنيد فإنه تستَّر بالفقه وكان يفتي على مذهب أبي ثور"[1].

فالصوفي يبطن غير الذي يظهر، هو منافق كبير، "والكامل – كما يقول الشيخ داود الكبير – من يستر باطنه بظاهره"[2]، والشيخ أحمد بن سليمان كان هو الآخر يتستر بالفقه حتى لا تكاد تسمع منه كلمة واحدة من دقائق القوم، والشيخ زكريا الأنصاري الخزرجي أيضاً قد "أشار على بعض الأولياء بالتستر بالفقه وقال: **استر الطريق فإن هذا ما هو زمانها**"[3]، وعندما قال ابن عربي بوصاياه الشرعية في كتابه الفتوحات قال في نهايتها:

"هـذي وصـيتنا إن كنـت ذا نظـر فإنهـا حيلـة مـن أحسـن الحيـل"[4]

ويحدثنا أيضاً عن ولي من أصحابه من أهل السوس من بلاد الغرب الأقصى أنه أفشى له أسرار اعتقاده وأعجب به لكنه كما يقول: "كان لديه علوماً جمة وفضل إلا أنه لم يكن له دين، وإنما كان يقيمه صورة، عصمة

[1] - ص١١٢ الرسالة القشيرية، ص٩٣ ج٢ م٤٧ اليواقيت والجواهر
[2] - ص١٩٩ ج١ الطبقات الكبرى
[3] - ص١٢٢ – ١٢٣ نفسه
[4] - ص٤٤٥ ج٤ بـ٥٦٠ الفتوحات المكية

لدمه، هذا قوله لي"[1]. وهل لهذا الولي إفشاء سره إلا لمن هو مثله أو لمن لا وزن للدين عنده؟!

٥ – الرمز للتقية: الحديث عن الأسرار بواسطة الرمز طريقة معروفة عند أهل التصوف، والقارئ أو السامع عندها سيحكم على فهمه لا عليهم، سيجهِّل نفسه بمعاني ما يسمع أو يقرأ، وتلك هي غايتهم والكلاباذي يقول: لقد "اصطلحت هذه الطائفة على ألفاظ في علومها تعارفوها بينهم فرمزوا بها فأدركه صاحبه فخفي على السامع الذي لم يحل مقامه فإما أن يحسن "أي المستمع" ظنه بالقائل فيقبله ويرجع إلى نفسه فيحكم عليها بقصور فهمه عنه، أو بسوء ظنه فيهوِّس قائله وينسبه إلى الهذيان. وهذا أسلم له من رد حق وإنكاره"[2].

فالمستمع لرمزياتهم إذن إما منكر عليهم ولا يقين لإنكاره، وإما مصدق بحسن ظنه وبلاهته، وإما أنه سينعتهم بالجنون والهلوسة، وفي كل هذه الحالات لا إدانة لها إثبات خروجهم عن المعلوم من العقائد، وعلى ذكر الجنون أيضاً نرى أن الشيخ عبد القادر الجيلاني، قد زعم الجنون لنجاة أسراره وفي ذلك قال: اعلموا أني "كنت أتظاهر بالتخارس

[1] - ص٥٢٣ ج٣ بـ٣٨٣ نفسه
[2] - ص٨٨ التعرف لمذهب أهل التصوف

والجنون وحُملت إلى البيمارستان"[1] وبذلك نجوت، وأيضاً "ادعى الشبلي الجنون"[2] تقية له.

فالرمز إذن كما يقول صاحب اللمع "معنى باطن مخزون تحت كلام ظاهر لا يظفر به إلا أهله"[3]، وبه كما يقول القشيري "كانوا يسترون معانيهم عن الأجانب عنهم"[4]، يقصد الفقهاء وبقية المسلمين، فقد استخدم القوم العبارات المغلقة – كما يقول الشعراني – على من ليس منهم-. خوف أن يرمى أولياء الله بالزور والبهتان فجعلوا لهم رموزاً يتعارفونها فيما بينهم لا يفهمها الدخيل بينهم إلا بتوقيفهم غيرة على أسرار الله تعالى أن تفشى بين المحجوبين"[5]، "فالقوم لا يتكلمون بالإشارة إلا عند حضور من ليس منهم أو في تآليفهم"[6]، وفي ذلك أنشدوا:

"ألا إن الرمز دليل صدق — على المعنى المغيب في الفؤاد
وكل العارفين لها رموز — وألغاز تدق على الأعادي
ولولا اللغز كان القول كفراً — وأدى العالمين إلى الفساد"

---

[1] - ص١٢٧ ج١ الطبقات الكبرى
[2] - ص١١٩ الفيلسوف الغزالي
[3] - ص١٦٤ مدخل إلى التصوف الإسلامي
[4] - ص١٦٣ نفسه
[5] - ص٤ ج١ اليواقيت والجواهر
[6] - ص١٦ ج١ نفسه

ولكن كما يقول الشعراني: **إن هيأ الله تعالى للعارف أسباب ظهور شأنه وقدر على المنكرين عليه. فله حينئذ إظهار معارفه على رؤوس الأشهاد"**[1] وعندها لا أسرار ولا كتمان ولا تقية، وهذا هو شأن كل المنظمات أو الأحزاب السرية التي تنتظر الفرصة للاستيلاء على مقاليد الأمور!!

الرمز ضروري وإلا لما وجد أهل التصوف مريداً واحداً ينتسب إليهم، خاصة إن كان له إدراك معارضة أسرارهم أو معارفهم للقرآن والنبوة، ففي الرمز شفقة على المريد إن حرم أو حتى لا يُحرم من سلوك طريق العرفان، والخشية كما يقول الشعراني "أن يسمع – المريد – منهم شيئاً لا يصل إلى عقله القاصر، فينكر عليهم فيحرم ذاك العلم"[2].

ففي الرمز حرز وأمان والمكزوني يقول:

"قالوا تحدث بالصريح من الحديث بغير رمز
فأجبتهم وهل عاقل يرمي الكنوز بغير حرز"[3]

والشيخ عبد الكريم الجيلاني ينشد قائلاً:

رمزي الذي لي في الهوى أعيا قراءة كل كاتب

---

[1] - ص١٦ ج١ بـ٣ نفسه
[2] - ص٩٢ ج٢ م٤٧ نفسه
[3] - ص٢٨ مقدمة في التصوف الاسلامي

أظهرته بعبارة دقت فلم تُفهم لعائب

وغرسته فجنيته وخبأته بين الترائب

أبديته وكتمته والله عن كل الحبائب" [1]

ففي الرمز النجاة من الفقهاء والمحدثين وعلماء الرسوم، ففيه النجاة من هؤلاء الفراعنة "فهم – كما يقول ابن عربي – لهذه الطائفة مثل الفراعنة للرسل عليهم السلام لذلك عدل أصحابنا "في تفسير القرآن إلى الإشارات- ليأنس الفقيه صاحب الرسوم إلى ذلك ولا يقولون في ذلك أنه تفسير وقاية لشرهم وتشنيعهم في ذلك بالكفر عليه"[2]

"ولولا اللغز كان القول كفراً وأدى العالمين إلى الفساد
فهم بالرمز قد حسبوا فقالوا بإهراق الدماء وبالفساد" [3]
"فكيف بنا لو أن الأمر يبدو بلا ستر يكون له استنادي
لقام بنا الشقاء هنا يقينا" [4]

وتفنن القوم في استخدامهم للرموز أو المصطلحات إلى حد الهلوسة، ومن رمزيات ابن سبعين المغلقة عن الفهم قوله مثلاً: "والنفس لي وفي ولأجلي والتصوف ولا بد والصواب والجواب وعد وقد وشد

---

[1] - ص١٠ ج١ الإنسان الكامل في معرفة الأواخر والأوائل
[2] - ص٢٧٩ ج١ بـ٥٤ الفتوحات المكية
[3] - ص١٨٨ ج١ بـ٢٥ نفسه
[4] - ص١٨٩ نفسه

والحق٥٥٥٥٥ دصعبف. هذا ولا هذا وماذا إذا ماذا ولماذا كماذا"[1]، "الله الله فقط الله ر ٥١١ ك٥حع – فقط لا توجِّد وأنت موحد-. إذا لاح نور الله ح لا ع ألا يشك الرشيد في ذلك كله وإذا ظفر حج ع ر فقد عظم أمره بالله"[2]. فأية عقائد للقوم تلك التي أعوزتهم لهذه الأساليب الغامضة من أجل كتمانها إنها بالطبع على الند مما هو معلوم وعليه فإنه لا بد من إخفائها.

وكم من صوفي بالفعل أفلت من العقوبة بسبب غموض أقواله وإبهام تعاليمه"[3]، "وأسلوب الطواسين – للحلاج مثلاً – أسلوب رمزي اصطلاحي شديد الخفاء حتى أن الإنسان ليتعذر عليه فهم مقصود مؤلفه"[4] بالضبط. حتى أنه عندما سئل القاضي ابن سريح عن محاكمة الحلاج قال: "يتكلم بكلام لا أفهمه فلا أحكم بكفره"[5] إلا أنه حوكم وقتل، وكان هناك من فهم مقصوده لأن المقصود بالرمز مرتبط بالمبادئ، وبارتباط النتائج بالمبادئ يكون وضوح المغزى الصوفي وما هذا بعزيز لمن تعرَّف على المبادئ ربطاً بالنتائج، بل ويكفي لإدانتهم اعترافهم بأن الرمز وسيلتهم

[1] - ص٣٥٣ بد العارف
[2] - ص٩٦ ابن سبعين وفلسفته الصوفية
[3] - ص٤١ الصوفية في نظر الإسلام
[4] - ص١٣٢ في التصوف الإسلامي وتاريخه
[5] - ص٣٢٨ دراسات في التصوف الإسلامي

لإخفاء الكفر المرتبط بأسرارهم وعقائدهم، مقارنة بالعقائد التي في كتاب الله وما قاله النبي وفعله.

- ملاحظة: صحيح أن الصوفي كما رأينا يقول بضرورة الحرص على إخفاء الأسرار بالكتمان والرمز والتقية وإلى ما هنالك، إلا أنك لا تراه إلا وقد راح في أكثر الأحيان يتحدث عنها بلا مبالاة إلى حد الطلاقة التامة، وهل يعني هذا أن الأسرار التي ارتبطت بالرمز الغامض إلا عن أهله بالفعل هي التي تخص الناحية العملية التي مهمتها السعي للاستيلاء على مقاليد الأمور وشؤون الدولة؟ هذا ما أظنه. لأني ما رأيت بالنسبة لعقائدهم أنها مغلقة عن الإدراك، ولا محاكمة الحلاج كما هو معروف كانت محدودة بعقائده دون نشاطه السياسي، حتى أن السبب المباشر لمقتله برأي أغلب المحققين هو الجانب السياسي بذريعة الجانب العقائدي أو الإلحادي.

٦ – اتهام الخصوم سياسياً: إنه لردع الخصوم عن الإنكار على أهل التصوف صيانة لأسرارهم يستخدمون ضدهم الاتهام التاريخي المعتمد لديهم، وهو الوهابية، أو بالمذهب الخامس من باب الاستهزاء، ومن تهافتهم يأنفون من الاحتجاج عليهم بالبخاري ومسلم وبقية صحاح الأحاديث، وأقوال الفقهاء كابن الجوزي وابن الجوزية والشافعي وغير

هؤلاء كثير، وهؤلاء جميعاً وأمثالهم قد كانوا قبل ابن عبد الوهاب، وهم منكرون بحججهم على المتصوفة خلافهم مع الإسلام.

والحقيقة أن الوهابية في العرف الصوفي تعني الخيانة، فمن المعلوم أن دولة بني عثمان قد استخدمت التصوف سياسياً لغرضين: الأول: التجسس على رعاياها، وترويج ما ترغب القيام به، ولهذا كان إعفاء أولياء التصوف ذوي الخوارق من الخدمة العسكرية في الجيش التركي، إضافة إلى المنح المالية والإقطاعات التي يتلقاها مشايخ أو قادة الطرق الصوفية من الدولة. الثاني: لمضاهأة العتبات والمقامات المقدسة لآل البيت إبان الصراع التركي الإيراني وفي هذا السبيل كان إحياء تقديس أضرحة وقبور أولياء التصوف، بما يلزمها من وقف وحبوس للإنفاق على سدنة وخدام الأولياء الموتى، وفي أواخر الدولة العثمانية في هذا العصر الذهبي للتصوف، قام الشريف حسين بثورته الكبرى، وبوصول آل سعود إلى السلطة، ومن أجل إيجاد الأيديولوجيا المناوئة للتصوف، استعانوا بالشيخ محمد بن عبد الوهاب الذي عزز الإنكار على أضرحة المتصوفة لحد اتهامهم بعبادة القبور، وبالاتهام المضاد اعتبر المتصوفة أن الانشقاق عن دولة بني عثمان خيانة كبرى لدولة الإسلام، وبهذه الخيانة التي تختصروها بالوهابية يتهمون المنكر عليهم كائناً من كان ولو لم يكن مسلماً أو علمانياً بالوهابية!!

٧ – الصوفي يتهم الصوفي تقية له: التقية والنفاق صنوان ولا أمانة مع المنافق، فإن كان صديقاً حميماً مثلاً فلن يتورع عن الغدر بصديقه متى كان في الغدر منفعة له، واعلم بأنه "ممن أفتى – بقتل الحلاج على ذمة ابن عجيبة – الجنيد والشبلي "لا لشيء إلا غيرة على السر أن يفشى لغير أهله"[١]. فهل وشيا به إلى السلطان ليعاقبه على استهتاره بحفظ الأسرار؟ لا، وكل ما في الأمر أنهما أرادا النجاة من السيف فوافقا على اتهامه أو على الحكم بقتله، وبهذا كانت لهما النجاة من القتل. وبالتقية كان الشبلي يهاجم أبا يزيد كثيراً إلى حد أنه قال: "لو كان أبو يزيد رحمه الله ها هنا لأسلم على يد بعض صبياننا"[٢]. وقصة "العز بن عبد السلام" مع ابن عربي حسب رواية "نفح الطيب" أوضح بمعناها الذي ارتبط بالتقية حيث تقول: "واتفق أن كان العز بن عبد السلام يطعن على ابن عربي ويقول: هو زنديق، فقال له بعض أصحابه: أريد أن تريني القطب فأشار إلى ابن عربي"[٣]. ولعله يقصد قطب الزنادقة أو كبيرهم!!

---

[١] - ص٣٦٧ ج٢ الفتح الإلهي
[٢] - ص٤٠ شطحات الصوفية
[٣] - ص١٥ ج٢ التصوف الإسلامي في الأدب والأخلاق

ـ الخاتمة:

من أجل استقامة الصوفي مع تجربة الشك في النبوة افترض أن النبوة كسباً لا اصطفاءً وباستخدامه للوصول إلى الله والكشف والذوق والواردات توصل للاعتقاد بتوحيد لا فاعل ولا موجود ولا معبود إلا الله، الذي على عاتقه نقض النبوة وإبطال الربوبية، إضافة إلى ما يلي من النتائج:

١ – إنكارهم للخلق من عدم، ولا خلق إلا عن طريق الفيض.

٢ – إنكار وجود جبريل كناقل للرسالة ما بين الله والرسول.

٣ – إنكار الحساب على الأعمال، ولا جنة إلا الكشف ولا نار إلا الحجاب والكل جبر.

٤ – إنكار التكاليف ولا فرق بين المكلِّف والمكلَّف.

٥ – كل العقائد في الصواب سواء، والكل من تجلياته سبحانه.

٦ – لا فرق بين الطاهر والنجس والعاصي والمطيع، ومآل إبليس إلى النعيم.

٧ – لا انقطاع لنبوة الولاية وبالتأويل يكون استمرار نبوة التشريع.

هذه هي الأسرار التي حرص الغنوصيون أو المتصوفة على كتمانها، وما زلنا نقول: قدس الله أسرارهم، وهم من ألف عام وأكثر ما زالوا ينتظرون فرصتهم!!

- المراجع:

١ – **القرآن الكريم.**

٢ – **التصوف الإسلامي بين الدين والفلسفة:** د. ابراهيم هلال ١٩٧٥.

٣ - **الفتح الإلهي:** السهروردي، هامش إحياء علوم الدين.

٤ – **التصوف الإسلامي بين الأصالة والاقتباس:** عبد القادر عطا، ط١.

٥ – **الطبقات الكبرى:** عبد الوهاب الشعراني، دار الفكر.

٦ – **الإبريز:** أحمد المبارك، تحقيق محمد الشماع ج١ ط١ ١٩٨٤، ج٢ ط١ ١٩٨٦.

٧ – **الرسالة القشيرية:** عبد الكريم القشيري ١٩٥٧.

٨ – **التصوف الإسلامي في الأدب والأخلاق:** د. زكي مبارك، دار الجيل.

٩ – **الإنسان عند الغزالي:** د. علي عثمان، تعريب خيري حماد.

١٠ – **المظنون به على غير أهله:** أبو حامد الغزالي، هامش الإنسان الكامل للجيلاني.

١١ – **المنقذ من الضلال:** أبو حامد الغزالي، هامش الإنسان الكامل للجيلاني.

١٢ – **الفتح الرباني:** عبد القادر الجيلاني، تحقيق محمد البواب، دار الألباب.

١٣ – **الإنسان الكامل في معرفة الأواخر والأوائل:** عبد الكريم الجيلاني، مطبعة حجازي، القاهرة ١٣٦٨ هـ.

١٤ – **اليواقيت والجواهر:** عبد الوهاب الشعراني، مطبعة الحلبي ١٩٥٩.

١٥ ـ **الفتوحات المكية:** محيي الدين ابن عربي، مكتبة الثقافة.

١٦ ـ **الكبريت الأحمر:** عبد الوهاب الشعراني، هامش اليواقيت والجواهر.

١٧ ـ **الروحية عند محيي الدين ابن عربي:** د. علي راضي.

١٨ ـ **الصوفية في شعر ابن الفارض:** تحقيق حامد عبود ط١ ١٩٨٨.

١٩ ـ **الأنوار القدسية:** عبد الوهاب الشعراني، هامش الطبقات الكبرى.

٢٠ ـ **الفكر الصوفي عند عبد الكريم الجيلي:** يوسف زيدان ١٩٨٨.

٢١ ـ **التصوف الثورة الروحية في الإسلام:** د. أبو العلا عفيفي، دار الشعب، بيروت.

٢٢ ـ **النور من كلمات أبي طيفور:** أبو يزيد البسطامي.

٢٣ ـ **المظنون الصغير:** الغزالي، هامش الإنسان الكامل للجيلاني.

٢٤ ـ **الصلة بين التصوف والتشيع:** د. كامل مصطفى الشيبي ط٢.

٢٥ ـ **الحلاج شهيد التصوف الإسلامي:** طه سرور ط٢.

٢٦ ـ **المقصد الأسنى:** الغزالي، مطبعة حجازي.

٢٧ ـ **التعرف لمذهب أهل التصوف:** أبو بكر محمد الكلاباذي، المكتبة العلمية ١٩٨٠.

٢٨ ـ **التصوف في الإسلام:** د. عمر فروخ، دار الكتاب العربي ١٩٨١.

٢٩ ـ **الصوفية في نظر الإسلام:** سميح الزين، ط٣،٢ ١٩٨٥.

٣٠ ـ **إيقاظ الهمم:** أحمد بن عجيبة، ١٩٨٦ ط١.

٣١ ـ **إحياء علوم الدين:** أبو حامد الغزالي.

٣٢ ـ **أشرف الوسائل:** محمد الصيادي ط١ ١٣٨٩ هـ.

٣٣ ـ **ابن سبعين وفلسفته الصوفية:** د. أبو الوفا التفتازاني، دار الكتاب اللبناني ط١ ١٩٧٣.

٣٤ ـ **أضواء على مسلك التوحيد:** د. سامي مكارم ١٩٦١.

٣٥ ـ **بد العارف:** عبد الحق ابن سبعين، تحقيق د. جورج كتورة ط١.

٣٦ ـ **تلبيس إبليس:** عبد الرحمن ابن الجوزي ط٢ ١٣٦٨ هـ.

٣٧ ـ **دراسات في التصوف الإسلامي:** د. محمد شرف، دار النهضة ١٩٨٤.

٣٨ ـ **سير الأولياء:** صفي الدين الحسني، تحقيق مأمون ياسين وعفت حمزة.

٣٩ ـ **من التراث الصوفي:** د. محمد كمال جعفر ط١ ١٩٧٤.

٤٠ ـ **من الفلسفة اليونانية إلى الفلسفة الإسلامية:** د. محمد عبد الرحمن مرحبا، ط١ ١٩٧٠.

٤١ ـ **مجلة المعرفة:** ١ـ١٩٧٩، ٣ـ١٩٨٠، ٤ـ١٩٨١، ٣٥ـ٣٦ـ١٩٨٩.

٤٢ ـ **من تراثنا العربي الإسلامي:** عالم المعرفة.

٤٣ ـ **مدارج السالكين:** ابن القيم الجوزية، تحقيق محمد الفقي ط١.

٤٤ ـ **مواقع النجوم:** ابن عربي، مطبعة محمد صبيح ١٩٦٥.

٤٥ ـ **مدخل إلى التصوف الإسلامي:** د. أبو الوفا تفتازاني ط٢ ١٩٧٦.

٤٦ ـ **مشكاة الأنوار:** أبو حامد الغزالي، ضبط: رياض العبد الله ١٩٨٦.

٤٧ ـ **مقدمة في التصوف الإسلامي:**

٤٨ ـ فلسفة التصوف قدرات وطاقات: د. هاني نصري ١٩٩٠.

٤٩ ـ **فصوص الحكم:** ابن عربي، تحقيق أبو العلا عفيفي، دار الكتاب العربي.

٥٠ ـ **قلادة الجواهر:** محمد الصيادي.

٥١ ـ **شطحات الصوفية:** د. عبد الرحمن بدوي، ط٢ ١٩٧٦.

٥٢ ـ **شروح رسالة الشيخ أرسلان:** عبد الغني النابلسي، دمشق، مطبعة العلم، تحقيق: عزة حصرية ١٩٦٩.

- الفهرس: